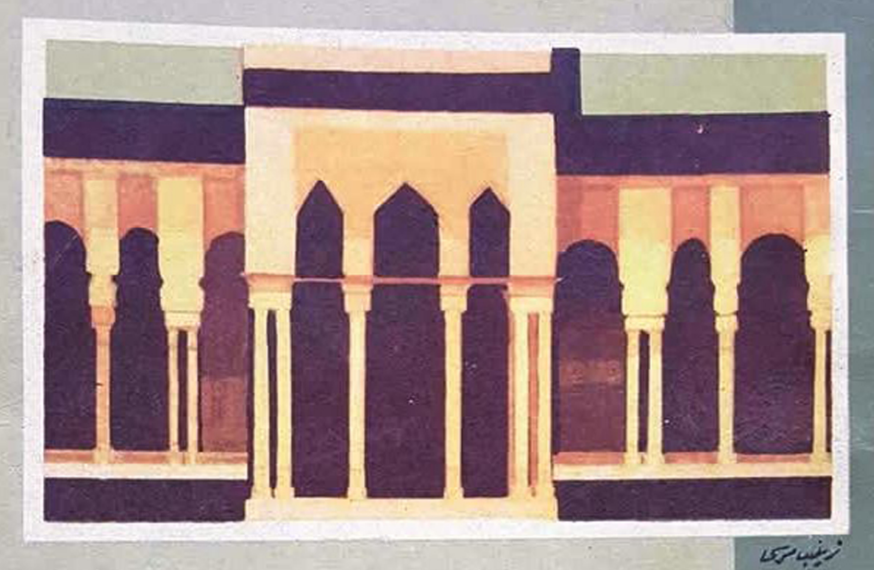


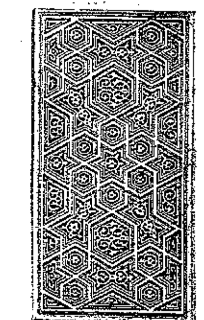
مدريد العربية

تأليف: الدكتور محمود علي مكي



تأليف | الدكتور محمود علي مكي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة





العرب والحضارة الانسانية ...

قضية طالما شغلت الباحثين فى تاريخ الحضارة واحتدم حولهـــا الجدل فى أوربا منذ القرن الثامن عشر ، فمن معترف بفضل العرب والمسلمين على الحضارة ومن منكر لهـــذا الفضل ، أو مقلل من شأنه ..

وكان الراى السائد بين المستشرقين خلال القرن التاسع عشر هو انكار فضل العرب أو التهوين من دورهم فى خدمة الحضـــارة الانسانية ودفع ركبها فى طريق التقدم . صحيح أنه كان من بينهم من تحرى الانصاف وتحرر من الهوى ، غير أن غالبيتهم كانت تحدو بهم نوازع العصبية والتحزب ، اذ كانوا يعتبرون التسليم بفضـــل العرب على حضارتهم انزالا لأوربا عن المكانة التى أرادوا أن يبوئوها اياها باعتبارها سيدة العالم ، ولهذا فقد كانوا يجتهدون فى اثبات أن الحضارة الأوروبية لم تستمد عناصر نهضتها فى أواخر العصور الوسطى ومشارف الحديثة الا من حضارة الاغريق والرومان ، أى من مصادر أوربية خالصة . وكان هؤلاء المستشرقين واقعين تحت نفوذ الآراء التى كانت تسود أوربا فى ذلك الوقت حول ما سموه

« تفوق » الجنس الآرى الأبيض على الجنس السامى وغيره من الأجناس الملونة ، كما أنه كان مما يزيد تعجرف الأوربيين وغرورهم كون ذلك العصر أوج الاستعمار والامبراطوريات المترامية الأطراف التى كونتها البلاد الأوربية على حساب الشعوب المستضعفة فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . وهكذا أصبحنا نرى لدى العلماء الأوربيين خلال هذا العصر مفاهيم تكاد تكون ثابتة أرادوا أن يقابلوا بها بين قيم كانت تبدو لهم متميزة متقابلة متضادة : الشرق والغرب أوربا وغيرها من القارات ، الجنس الأبيض والأجناس الملونة ، المسيحية وما عداها من الأديان .

غير أن هذا الوضع أخذ فى التغير منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وبدأت موجات التعصب لدى المستشرقين تنحسر وان لم تنته تماما حتى اليوم ، وأثبتت الأبحاث التى قام بها كثير من العلماء ممن أوتوا قدرا من النزاهة والانصاف أن أوربا تدين بكثير من عناصر حضارتها الحديثة لما أخذته عن العرب والمسلمين .

وتتوالى الأدلة وتتواتر البراهين على هذا التحول الجديد .. ويتجلى للباحثين مدى ما أخذته أوربا عن الشرق والحضارة العربية والاسلامية فى كل ميادين الحياة والعلوم والآداب والفنون والصناعات . ويرى الجميع أنه حتى علوم الاغريق والرومان لم تصل الى أوربا عصر النهضة الا عن طريق الترجمات العربية .

وقد أعانت على الوصول الى هذه النتائج الأبحاث التى أجريت أخيرا حول الحضارة العربية فى الأندلس ، اذ أن شبه جزيرة ايبريا كانت بغير شك أول ميدان أمتزجت فيه العناصر العربية والأوربية واستطاعت أوربا عن طريقه أن تعرف الكثير عن حضارة العرب والاسلام ، ونقلت كثيرا من هذا التراث الى مختلف بلدانها، وعلى أساس ماتعلمته أوربا من العرب والمسلمين قامت النهضة الأوربية التى دفعت الحضارة الانسانية خطوات فى طريق التقدم .

الحضارة العربية فى أسبانيا

وقد فتح المسلمون شبه جزيره ايبريا فى سنة ٩٢ (٧١١) وظلوا فى شبه الجزيرة حتى سقطت غرناطة آخر معاقل الاسلام فيها فى أيدى النصارى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢) ، على أن انتهاء السلطان السياسى أو العسكرى للمسلمين لم يكن معناه القضاء على المجتمع الاسلامى ، اذ بقيت فى الأندلس على الرغم من الهجرات المتوالية الى البلاد المجاورة فى المغرب وعلى طول الشمال الافريقى جماعات كبيرة من المسلمين عرفوا باسم الموريسكيين ، وأضطر بعضهم تحت وطأة محاكم التحقيق الى التظاهر بأعتناق المسيحية وأما الذين تمسكوا بدينهم فقد نفوا من بلادهم فى أكثر من مناسبة وكانت آخر موجة من موجات المطرودين منهم فى سنة ١٠٢٣ (١٦١٤) .

ومعنى ذلك أن بقاء الاسلام فى شبه الجزيرة يقدر بنحو تسعة قرون أى مدة تزيد على ما بقيه فى هذه البلاد الرومان والقوطيون معا . ولهذا فليس من الغريب أن تترك الحضارة العربية فى اسبانيا والبرتغال آثارا باقية الى اليوم ، وهى واضحة فى كل مظهر من مظاهر الحياة : فى اللغة وفى التكوين الروحى والجنسى وفى

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية وفى الثقافة والفكر، وفى الفنون والفولكلور ...

لقد كان « الوجود » العربى والاسلامى فى اسبانيا (ويمكن أن نضيف البرتغال اليها فى ذلك) بمثابة ستار خلفى ينبغى ألا يغيب عن نظرنا ونحن نتحدث عن هذه البلاد فى أى لون من ألوان الحياة ، ونحن نكرر هنا ما سبق أن قلناه فى مناسبة سابقة من أن الحضارة الاسلامية « تركت فى اسبانيا من الآثار ما هو أعمق بكثير مما يبدو فى الظاهر ، بل اننا لا نبالغ اذا قلنا انه ينبغى أن نلتمس دائما هذا الستار الخلفى اذا أردنا أن نلتزم طريق الصواب فى تفسير أى ظاهرة كبيرة أو صغيرة من حياة اسبانيا ، لا فى الماضى فحسب ، بل فى الحاضر الواقع . اذ أن كل هذه الظواهر اما أثر مباشر للاسـلام والحضـارة العربية أو رد فعل غير مباشر » .(١)

ولا يتسع المجال هنا للتدليل على هذا الحكم العام الذى نلقيه ونحن واثقون من صحته ، اذ أن ذلك يقتضى الدخول فى جزئيات لا نهاية لها ، ولكن يكفى أن ننبه هنا الى عدة حقائق لها خطرها وأهميتها فى التمهيد لهذا البحث ، وأولها ان الحكم الاسـلامى لشبه الجزيرة لم يكن فى الواقع عملا عسـكريا يعتمد على قوة السلاح ، ولو كان ذلك صحيحا لما أمكن أن نفهم كيف استطاع الغزاة الذين فتحوا تلك الرقعة المترامية الأطراف (أوسـع بلاد أوربا بعد روسيا) تحت قيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد أن يبقوا فيها ويمهدوا سلطانهم بها مع أنهم لم يكونوا يتجاوزون نحو ثلاثين ألفا ، هم الذين نعرف أنهم قدموا الى الأندلس مع موسى

---

(١) أنظر مقدمة ترجمتى العربية لمسرحية المؤلف الأسبانى أليخاندرو كاسونا : مركب بلا صياد ، العدد ١٣ من مسرحيات عالمية ١٥ سبتمبر ١٩٦٥ ــ ص ٣٩

وطارق ثم فى طالعة بلج بن بشر القشيرى . ومثل هذا العدد ــ مهما قيل عن ضعف القوطيين وانحلال دولتهم ــ لا يمكن أن يكون كافيا لفرض سلطان الفاتحين على قطر هائل الاتساع مثل شبه جزيرة ايبريا وعلى الشعب الذى كان يضطرب بين جنباته .

والتفسير المنطقى لثبوت أقدام المسلمين فى اسبانيا هو أن هؤلاء البضعة الآلاف من الفاتحين انما عرفوا كيف يستقرون فى تلك البلاد بعد أن قدموا للشعب الاسبانى الذى كان يرزح تحت وطأة الحكم القوطى قيما جديدة نالت قبوله وبهرت نظره . آتى هؤلاء الفاتحون المسلمون ومعهم دين جديد ولغة جديدة وحضارة جديدة لم يألفها الشعب المغلوب ولكنه رأى فيها طريق الخلاص والتقدم . تماما كما رأت ذلك فى الاسلام وحضارته الشعوب التى فتحتها الجيوش العربية من قبل مثل فارس والعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا . وهذا هو ما يفسر لنا كيف امتدت دولة الاسلام فى نحو سبعين سنة من تخوم الهند الى جبال البيرنيه .

وكان العرب فى معاملتهم للشعوب المغلوبة بعيدين عن التعبد بالعصبية الجنسية العنصرية ، وعلى الرغم مما أسرفت كتب التاريخ والأدب فى الحديث عنه من الصراع بين العرب والموالى فان واقع الأمر يدلنا على أنه لم تمض سنوات على الامتداد العربى حتى بدأت حركة امتزاج عميقة بين العرب والشعوب التى انضوت تحت لوائهم . وفرق بعيد بين سياسة العرب فى هذه الناحية وبين الرومان على سبيل المثال ، فقد كان هؤلاء لا يمنحون « القومية الرومانية » لرعايا البلاد الخاضعة لامبراطوريتهم الا فى أضيق الحدود مما أقام سدودا عالية بين السادة الرومان الحاكمين وعامة الشعب المحكوم .

ونحن نرى فى الأندلس مظهرا حيا لذلك الاختلاط السريع ، فقد أتى المسلمون رجالا غزاة لامهاجرين قادمين للاستيطان

بعائلاتهم ، فاتخذوا النساء من شبه الجزيرة وصاهروا أهلها ؛ وهكذا لا يمضى جيل أو جيلان حتى نرى هذا المجتمع «الأندلسى» الجديد ، هذا المجتمع الاسبانى العربى اذ لا نستطيع أن نطلق عليه أحدى هاتين النسبتين فقط ، مجتمعا كانت غالبيته تدين بالاسلام وان كانت قد بقيت فيه أقلية نصرانية لا يميزها عن المسلمين الا الدين حتى انها كانت تسمى بالمستعربين إشارة الى تمثلهم الحضارة العربية واصطناعهم لرسومها ، مجتمعا كان يتكلم العربية باعتبارها لغته الرسمية وان كان أفراده فى بيوتهم ومجتمعاتهم الخاصة يتحدثون لغة هى خليط من عناصر عربية ولاتينية دارجة (رومانسية) مجتمعا كان معتزا بقوميته الأندلسية عميق الشعور بها فى كل لحظة حتى نهاية الاسلام فى تلك البلاد ، مجتمعا تعددت فيه الأجناس والعناصر ففيه العرب وهم بدورهم قادمون من مختلف بلاد الشرق : من الحجاز واليمن وسورية وفلسطين والأردن والعراق ومصر وأفريقية (تونس) والمغرب ، والبربر من شتى قبائلهم المقيمة فى شمال افريقية ، والمواطنين الايبيريين القدماء والاسبان ذوى الأصول الرومانية ، والقوطيين المنحدرين من أصول جرمانية ، والصقالبة الوافدين على البلاد من وسط أوربا وشرقها ، والمهاجرين من غرب أوربا ومن بلاد النورمان ، كل هؤلاء اختلطوا فى بوتقة الأندلس ونتج عنهم ذلك الشعب الأصيل الفريد من نوعه .

غير أنه شعب ينتمى الى العرب والاسلام فى حضارته قبل كل شىء ، وقد كان على اعتداده بقوميته حريصا على عروبته وديانته ، وزاد من شدة حساسيته القومية والدينية بعده عن قلب العالم الاسلامى الناطق بالعربية ثم مصاقبته لأوربا المسيحية وتحول

بلاده الى الثغر الاسلامى الأول حيث كان يدور صراع طويل استمر نحو عشرة قرون كانت الانتصارات والهزائم خلالها متعاقبة متداولة حتى انتهى هذا الصراع الذى أبدى فيه الشعب الأندلسى كل ألوان البطولة الى أن نفذ أمر الله وقضاؤه وأسلم قياده الى المسيحية وان كان قد خلف فى الشعب الاسبانى المسيحى من الآثار ما جعل اسبانيا الى اليوم مرتبطة بتاريخ العرب وحضارتهم ارتباطا لا فكاك منه .

مدريد

صفحة مشرقة من تاريخ الحضارة الأندلسية

أصبح من المعتاد اذا تحدث أحد عن الآثار العربية فى الأندلس أن يكون أول ما يتبادر الى خاطره الكلام عن كبريات المدن الأندلسية وعلى رأسها قرطبة بمسجدها الجامع الذى يعتبر من أبهى غرر العمارة الاسلامية فى الأندلس واشبيلية بقصرها المشهور قصر المعتمد بن عباد وخلفاء الموحدين وبمئذنة مسجدها الجامع التى لا تزال تشرف على عروس الوادى الكبير ، وببرجها الصغير المعروف باسم برج الذهب وكلاهما من آثار الموحدين ، وأخيرا غرناطة عاصمة ملوك بنى الأحمر بما اشتملت عليه من روائع معمارية سجلت آخر مراحل التاريخ الاسلامى فى الأندلس ، وأهمها قصر الحمراء الذى لا يزال شاهدا على جمال الفن الأندلسى فى عصر احتضار الاسلام فى هذه البلاد .

والواقع أن كل هذه الآثار جديرة بما كتبه المؤرخون ورددده الباحثون فى تاريخ الفن عنها ، بل ربما كان كل ما كتب حولها لا يزال مقصرا عن استيفائها ما تستحق من بيان وتحليل ودراسة غير أن هذا الاهتمام بكبريات العواصم الأندلسية قد صرف نظر

الناس عن غيرها من المدن الصغرى التى لم تكن أقل من تلك تأثرا بالحضارة العربية .

وقرطبة واشبيلية وغرناطة مدن لم تدن للعرب بفضل انشائها بل هى قديمة ترجع الى العصر الرومانى وان كان العرب هم الذين جعلوا منها عواصم كبرى تضارع أعظم مدن العصور الوسطى مثل بغداد والقاهرة وبيزنطة ، بل أن قرطبة الاسلامية فى القرن العاشر الميلادى كانت بغير شك هى أعظم مدن الغرب الاسلامى وأكبر عاصمة فى القارة الأوربية كلها بلا استثناء . وهذا دليل على أن العرب كانوا يحسنون استخدام المدن التى سبقت دخولهم الى البلاد المفتوحة ويعملون على اكمال عمرانها وتجميلها حتى انهم لا يلبثون أن يصبحوا أولى بأن تنسب اليهم .

على أنهم مع ذلك لم يقصروا فى بناء مدن جديدة تحمل طابعهم المميز ، هذا فضلا عن آلاف المدن الصغيرة والقرى التى خلقوها فى الأندلس ، وكثير من هذه المدن والقرى العامرة الآن لا يزال يحمل أسماءه العربية خالصة أو محرفة ، والذى يطالع خريطة حديثة لاسبانيا والبرتغال يستطيع بسهولة أن يميز مئات الأسماء العربية مبثوثة على طول اسبانيا وعرضها ، وليس فى الجنوب فقط حيث استمر الحكم العربى فترة أطول ، بل انه يرى أسماء عربية حتى فى مناطق لم تعرف للمسلمين فيها اقامة طويلة .

المدن التي أنشأها العرب في الأندلس

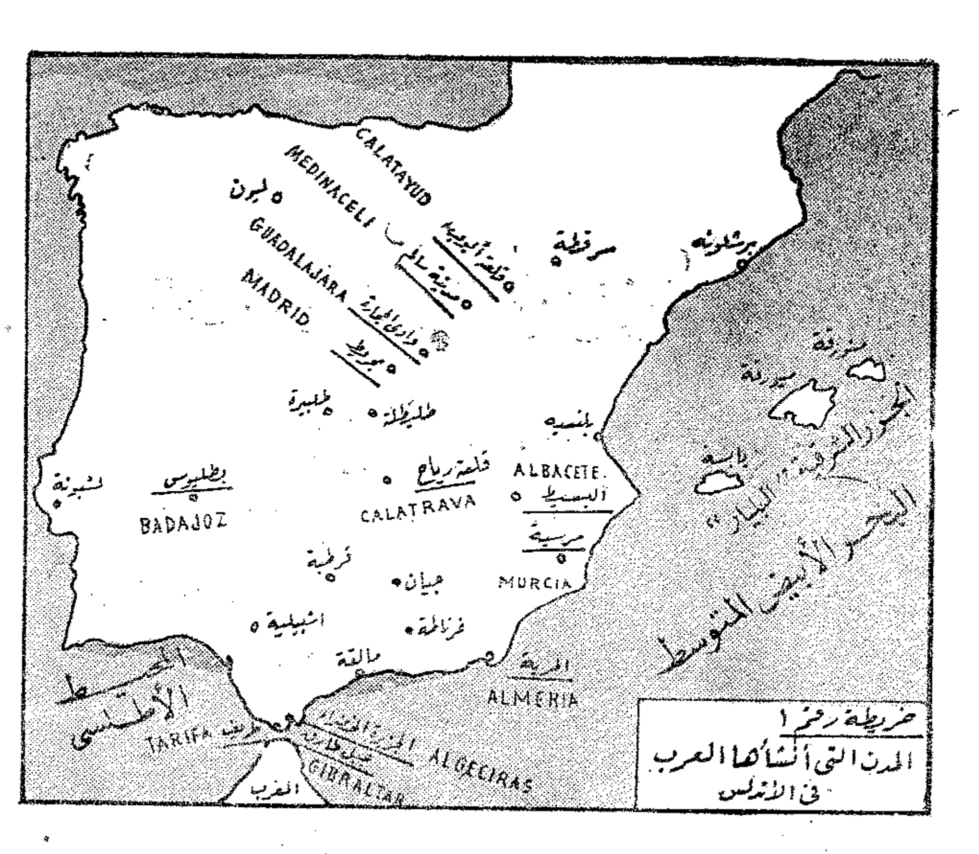
ويطول بنا الأمر لو أننـا حاولنا تسجيل هـذه الأسماء ، ولنكتف الآن بايراد نماذج المدن تعرف حق المعرفة انها تدين بانشائها فى صورتها الحالية الى العرب :

فى الجنوب :

الجزيرة الخضراء Algeciras (وكانت تدعى فى البدء جزيرة أم حكيم وتقع على مضيق جبل طارق) .

جبل طارق Gibraltar (أو جبل الفتح وهى الموضع الذى نزل فيه طارق بن زياد عند فتحه الأندلس وقد أقام العرب على هذا الجبل مدينة حصينة كانت تتحكم فى المضيق مما حمل البريطانيين على أن يحتلوها فى سنة ١٧٠٤ منتزعين اياها من أيدى الاسبان ، وهى الآن موضع نزاع بين اسبانيا وانجلترا) .

مدينة أو جزيرة طريف Tarifa (وهى تقوم على شبه جزيرة ، كانت أول موضع نزلت فيه حملة أبو زرعة طريف بن ملوك الذى أرسله موسى بن نصير فى سنة ٩١ (٧١٠) لاستطلاع أحوال الأندلس قبل القيام بالفتح) .



المدن التي أنشأها العرب في الأندلس ، وهي كثيرة لا يحصيها العد ، فاقتصرنا على المشهور مما وردت الاشارة اليه في الفصل الخاص بذلك من هذا الكتاب • وقد ميزنا هذه المدن عن غيرها بوضع خطوط تحت أسمائها •

المرية Almeria (على الساحل الجنوبى الشرقى ؛ وهى ميناء يرجع الفضل فى بنائها الى عبد الرحمن الناصر ، وفيها اتخذ مقر أساطيله وقد نمت هذه المدينة بسرعة وأصبحت من كبريات مدن الأندلس ولا سيما فى أيام الموحدين وعلى عهد دولة بنى الأحمر) .

فى الشرق :

مرسية Murcia (مدينة كبيرة بناها الأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم فى أول أيامه ، وقد أصبحت بعد ذلك من أعظم مدن شرق الأندلس ، واليها ينتسب محيى الدين بن عربى وولى الأسكندرية الكبير أبو العباس المرسى) .

البسيط Albacete (مدينة محدثة أنشأ العرب فى مكانها حصنا عرف بحصن اللج فى فترة متأخرة ، ثم أصبحت اليوم عاصمة لمقاطعة تحمل اسمها ، وهى تدين باسمها لانبساط الأرض فى هذه البقعة الممتدة بين شرق الأندلس والهضبة الوسطى) .

فى الغرب :

بطليوس Badajoz (مدينة أنشأها العرب وان لم تحمل اسما عربيا ، وقد أنشأها عبد الرحمن بن مروان الجليقى الثائر فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وكانت فى أول الأمر قلعة صغيرة ، ثم امتد عمرانها فى أيام العرب حتى أصبحت عاصمة لدولة بنى الأفطس فى أيام ملوك الطوائف ، وهى الآن عاصمة للمقاطعة الغربية المتاخمة للبرتغال) .

فى الهضبة الوسطى :

قلعة رباح Calatrava (مدينة تتبع طليطلة كانت فى أول الأمر حصنا يبدو أن بانيه هو التابعى على بن رباح صاحب موسى بن نصير ، وقد اهتم بها الأمير محمد بن عبد الرحمن واتخذها من قواعد مدينة طليطلة) .

قلعة أيوب Calatayud (مدينة تتبع سرقسطة وتقع الى الجنوب الشرقى منها ، وهى تحمل اسم أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير وهى من المدن المنيعة التى اهتم بها العرب حتى أصبحت من قواعد الثغر الأعلى المهمة فى أيام المرابطين) .

مدينة سالم Medinaceli (عاصمة الثغر الأوسط فى أيام العرب ، وتقع على الطريق بين مدريد وسرقسطة ، وتدين بفضل انشائها واسمها الذى لا يزال مطلقا عليها الى سالم بن ورعمال المصمودى أحد قادة البربر (من شمال افريقيا) وكان من موالى بنى مخزوم ، وهى الآن مدينة متوسطة تتبع اقليم سرية Soria التى يرجع فضل الاهتمام بها وتحصينها الى العرب كذلك) .

وادى الحجارة Guadalajara (من كبريات مدن الثغر الأدنى ، وتدين باسمها وانشائها الى العرب ، وكانت تسمى أيضا « مدينة الفرج » نسبة الى منشئها الفرج بن مسرة بن سالم حفيد ذلك القائد البربرى الذى أنشأ مدينة سالم من قبل . وما زالت هذه المدينة قائمة تحمل اسمها العربى ، وهى تقع الى الشمال الشرقى من مدريد على بعد نحو ستين كيلو مترا منها) .

مجريط (مدريد) Madrid (عاصمة أسبانيا ، وهى كذلك من بناء العرب كما سنرى من خلال هذا البحث) .

ويطول بنا الحديث لو أننا تتبعنا كل المدن المستحدثة التى قام العرب بانشائها فى اسبانيا ، أما القرى فلا يكاد يحيط بها الحصر ، وهى مبثوثة فى جميع أرجاء شبه الجزيرة .

على أننا سنختار فى هذه الدراسة مدينة مجريط ، اذ هى تطلعنا على صفحة مشرفة من التاريخ الاسلامى فى الأندلس ؛ وسنرى من دراسة الماضى العربى لهذه المدينة كيف باشرت الحضارة العربية الأندلسية على أرض اسبانيا وشعبها أثرا لا يمكن أن يمحوه الزمن .

اسم "مجريط".. هل هو اسم عربي؟

الذى نعرفه معرفة اليقـــين بحيث أنه يعتبر حقيقة لم ينكرها أى مؤرخ أوربى مهما كان تعصبه هو أن مدريد (مجريط) عاصمة اســبانيا الحــالية مدينة تدين بانشــائها الى العرب ، وقد كان الجغرافى العربى ياقوت الحموى هو الذى سجل ذلك فى كتابه معجم البلدان ، ولو أنه اختلط عليه أمر اسم المــــدينة فجعل منها اثنتين سمى الأولى منهما مجريط بالجيم(١) وسمى الثانية «محريط» بالحاء . وهذا النص الأخـير هو الذى نقصده وهو الذى اعتمد عليه سائر المؤرخين فى اثبات كون هذه المدينة مما أنشأه العرب ، وفيه يقول :

« مدينة بوادى الحجارة ، اختطها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ينسب اليها سعيد بن سالم الثغرى ساكن محريط (كذا) .. الخ » (٢) .

وقد ظل هذا النص ــ على ما فيه من خلط واضطراب ــ هو عماد المؤرخين للمدينة الاسبانية ــ العاصمة الأوربية الوحيدة التى قام بتأسيسها المسلمون ــ فى اثباتهم أصل مدريد العربى .

---

(١) معجم البلدان ، ط . القاهرة سنة ١٩٠٦ ، ٧/٢٨٨ ــ ٢٨٩

(٢) نفس المرجع ٧/٣٩٤

ثم تأكد ذلك بعد أن نشر المستشرق الفرنسى ليفى بروقنسال كتاب « الروض المعطار » للجغرافى الأندلسى ابن عبد المنعم الحميرى ، اذ أفرد هذا المؤلف لمجريط مادة كرر فيها ذلك الرأى ، وأضاف اليه أخبارا أخرى لها قيمتها مما نقله الجغرافى العربى عن أمير مؤرخى الأندلس ابن حيان (١) .

وأخيرا لم يعد فى هذا الرأى أدنى شك بعد أن عثرنا فى قطعة مخطوطة من كتاب « المقتبس » لابن حيان المذكور تتناول عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن على نص يقول فيه المؤرخ العظيم نقلا عن الرازى :

« ولمحمد فى سلطانه الآثار الجميلة ، والآيات الجزيلة ، والفتوح العظيمة ، والعناية التامة بمصالح المسلمين ، والتهمم بثغورهم ، والحفظ لفروجهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم ، وهو أمر ببنيان حصن أستيرش لفلال مدينة سالم ، وهو منها بين الجوف والغرب ، وهو الذى بنى لأهل ثغر طليطلة حصن طلمنكة وحصن مجريط وحصن بنة فراطه » (٢)

غير أن كون العرب أنشأوا مجريط لم يكن يعنى بالضرورة أن اسمها عربى ، ولا سيما فى الأندلس ذات المجتمع الذى أشرنا الى ازدواج اللغة فيه ، بل اننا نرى فى هذا النص نفسه من بين المدن

---

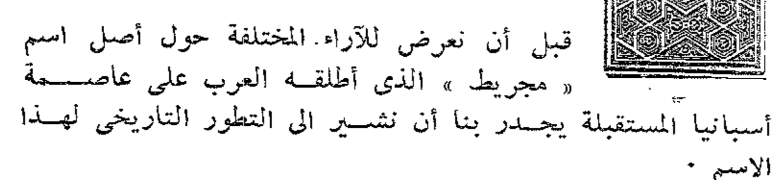
(١) ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ١٧٩ ـ ١٨٠ من النص العربى و ٢١٦ من الترجمة الفرنسية .

(٢) عثرنا على هذه القطعة من تاريخ المقتبس لابن حيان فى مكتبة جامعة القرويين بفاس (المغرب الأقصى) ، والنص المذكور يقع منها فى الورقة رقم ٢٢٢ أ . وقد سبق أن نشرنا هذا النص فى مقال لنا نشر فى مجلة « العربى » الصادرة فى الكويت ، رقم ٤٧ ، أكتوبر سنة ١٩٦٢ تحت عنوان « مدريد : عاصمة اسبانيا التى بناها المسلمون » ، ص ١٦ ـ ٢٢ . أما هذه القطعة من كتاب المقتبس فانها تحت الطبع الآن فى بيروت ، بتحقيقنا .

ألتى قام ببنائها الأمير محمد مع مجريط ثلاث قلاع أخرى ليس بينها ما يحمل اسما عربيا هى : استيرش وهى الاسبانية Esteras وطلمنكة Talamanca وبنه فراطه Peñahora ، وهما لفظان : Peña (باللاتينية Penna أى صخرة) و Forata (بالاسبانية الحديثة Horadada أى المنقورة أو المحفورة أو المجوفة) . وفى الأندلس عدد هائل من المدن والقرى يرجع الفضل فى انشائها الى العرب ولو أنهم اطلقوا عليها أسماء لاتينية أو لاتينية دارجة ربما كانت تدل على اسم الموضع من قبل ، ولم ير العرب ما يدعو الى استبدال تلك الأسماء بأخرى جديدة .

ومن هنا دب الخلاف بين الباحثين حول اسم « مجريط » ، وحاول بعضهم تفسيره على أساس اشتقاق عربى بينما أنكر آخرون ذلك قائلين ان العرب استخدموا لفظا قديما شائعا بين سكان هذه المنطقة وان لم يجمعوا على أصل اشتقاق ذلك اللفظ .

آراء المؤرخين واللغويين .. في اشتقاق اسم "مجريط"



قبل أن نعرض للآراء المختلفة حول أصل اسم « مجريط » الذى أطلقه العرب على عاصمة أسبانيا المستقبلة يجدر بنا أن نشير الى التطور التاريخي لهذا الاسم .

وقد كان الاسم العربى هو المتفق عليه منذ انشاء المدينة على أيدى العرب حتى وقوعها فى أيدى النصارى فى سنة ٤٧٦ (١٠٨٣ م) ، أما الاسم المسيحى الذى كان يطلق على المدينة فى هذا الوقت فقد كان رسما للنطق العربى ونقلا عنه بغير أدنى تحريف ، اذ كان على هذه الصورة ، Magerit ، وبهذه الصيغة نرى اسم المدينة فى نص للمؤرخ النصرانى سامبيرو فى مدونته التى كتبها فى القرن الحادى عشر الميلادى . ويجب أن نضع فى حسابنا أن حرفى الـ ge كانا يصدقان دائما فى اللغة التى كان يتخاطب بها نصارى الأندلس المستعربون على الجيم العربية المعطشة ، وهذه ظاهرة سجلها فقهاء اللغة الأسبان واصطلحوا عليها (١) .

---

(١) انظر كتاب منندث بيدال : أصول اللغة الاسبانية ص ٥٣ و ٦٥ .

ولم يكن استيلاء النصارى على المدينة فى أواخر القرن الحادى عشر مؤذنا بتغيير اسمها ، اذ ظلت معروفة بين أهل قشتالة المسيحيين بنفس الاسم العربى ، وعلى النحو الذى ذكرنا ، اى Magerit ، نرى هذا الاسم فى بعض الوثائق اللاتينية التى ترجع الى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وان كانت قد بدأت فى الظهور صيغ اخرى مثل Macherito, Maierit وأخيرا Madrit و Madrid التى كتبت هكذا لأول مرة فى وثيقة ترجع الى سنة ١١٩٢ . وقد كانت الصيغتان الأخيرتان هما أشيع الصيغ وأكثرها استعمالا خلال القرن الثالث عشر وان لم يكن معنى ذلك أن الصيغ الأخرى قد اختفت تماما .

وتبدأ الصيغة النهائية Madrid فى فرض نفسها على لغة الكتابة ابتداء من القرن الرابع عشر حتى اليوم . وان لم يكن الأمر كذلك فى لغة الحديث ، اذ مازال الكثيرون فى مدريد الآن ينطقون اسم مدينتهم اما بحذف الحرف الأخير أو بابداله ثاء اذ يجعلونه Madriz (مدريث) ، وهى ظاهرة شائعة فى الأحياء الشعبية للمدينة(١) .

أما آراء فقهاء اللغة حول الأصل الاشتقاقى لاسم Magerit الذى ورثه النصارى عن «مجريط» العربية فانها كانت على أشد مايكون عليه الخلاف والتضارب .

١ — وأول رأى ظهر فى تفسير أصل هذا الاسم هو الذى يقول انه مشتق من الكلمة اللاتينية Maior (أى الأكبر) ، وهو رأى كان أول من نادى به فى أوائل القرن السادس عشر الشاعر خوان أورتادودى مندوثا فى أبيات ضمنها فخرا بمدريد وتمييزا

---

(١) انظر أوليفر أسين : تاريخ اسم مدريد ص ١٩٤ .

لها عن سائر مدن الدنيا . ويقول هـــذا الرأى أن الاسم اللاتينى القديم لمدريد هو Maioritum ومنه جاءت التسمية Magerit التى استخدمها العرب والمستعربون النصارى عند انشاء المدينة . وحاول المؤيدون للرأى أن يربطوا بين هذا اللفظ وبين الاســم اللاتينى Maiorica الذى اطلقــه الرومان على جزيرة ميورقة (من جزر البليار ــ بمعنى الجزيرة الكبرى) وهو الذى تحرف فى الاسبانية الحديثة الى Mallorca وفات هؤلاء أن ذلك الاسم لم يكن الا اختراعا جادت به أذهان بعض المتحــــذلقين فى فترة متأخرة جدا عن بناء المدينة (فى القرن الثالث عشر الميلادى) حتى يطوعوا هذا الاشتقاق لأصــــل لاتينى مفتعل لا تؤيده الأصــول الاشتقاقية .

٢ ــ ولكن هذا التفسير لم يتح له القبول فى أوساط العلماء . وهكذا عادوا الى البحث عن اشتقاق عربى ممكن لاسم المدينــة ، اذ كان الجميع فى هذه الفترة « القرن السادس عشر الميلادى » مقتنعين بأنه لابد للاسم أن يكون عربى الأصل ، وان لم يتفقوا على اشتقاق واحد له . وزاد ايمان الناس بذلك بصــفة خاصة بعد أن أصبحت مجريط عاصمة اسبانيا فى عهد الملك فيليب الثانى سنة ١٥٦١ ، وربما كان ذلك يرجع الى وجود جالية كبيرة من المسلمين الموريسكيين فى المدينة والى رغبة الجميع هناك سواء هؤلاء المسلمين أو النصارى المعايشين لهم فى تلمس كل ما من شأنه أن يخلق روابط للتفاهم وحسن الجوار بين الجانبين .

والى هذا العصر ترجع التفسيرات العربية لاسم مجــــريط ، وأولها هو مانجده فى كتب لويث دى أويوس Lopez de Hoyos (١٥٦٩) وفنتــــورينى Venturini (١٥٧١) وكوك Cock (١٥٨٤) الذين قالوا ما مجمله أن «مدريد» مأخوذة من كلمة عربية معناها المكان ذو الهواء الطيب . ولابد أن هؤلاء فى هذا التفسير

قد رجعوا الى بعض الموريسكيين ممن كانوا يعرفون العربية ٠ونحن نرى أن اللفظ العربى الذى بدا لأولئك أن اسم «مدريد» مشتق منه هو مذرى أو مذراة ، المشتقان من الفعل « ذرا » أى نثر فى الريح، ومن هذه الكلمة أتت «الذاريات» أى الرياح الشديدة العنيفة ٠ والتفسير يبدو لأول وهلة مقبولا لولا أنه اعتمد اسم العاصمة الاسبانية فى صورته الحديثة المتطورة : مدريد ، فهو لا ينسجم مع الاسم الذى أطلقه العرب الذين أنشأوا المدينة أولا ، وهو كما نعرف «مجريط» ٠

٣ ـ ويأتى بعد ذلك تفسير آخر نادى به جابرييل لوبو لاسودى لافيجا Gabriel Lobo Laso dela Vega الذى قال ان اسم مدريد مشتق من كلمة تعنى بالعربية الشوكة المثلثة التي يستخدمها الزراع لتذرية الغلال ، وذلك للتشابه القائم بين مدريد وهذه الآلة من آلات الزراعة فهى مثلها تتفرع منها ثلاث طرق هى الخارجة من أبوابها الثلاثة : باب وادى الحجارة وباب الفحص المؤدى الى مدينة شقوبية ، وباب المسلمين المتوجه الى مدينة طليطلة ٠

وواضح أن هذا التفسير الجديد يعتمد على نفس الأصل العربى الذى قام عليه التفسير السابق أى من الفعل « ذرا » وان كان مأخوذا فى هذه المرة من كلمة « المذرى » بمعنى الآلة التى تستخدم للذرو ، وعيب هذا التفسير هو عيب سابقه ، اذ هو يعتمد اسم «مدريد» بصورته الحديثة ، دون أن يتنبه صاحبه الى أنه لا صلة بينه وبين الاسم القديم «مجريط» ٠

٤ ـ ثم نجد بعد ذلك تفسيرا لفرانسسكو لوبث دى تماريد Francisco Lopez de Tamarid وكان قسا غرناطيا من أصل موريسكي على ما يرجح ، اذ كان يعمل مترجما للعربية لدى السلطات الكنسية ، وكان الموريسكيون هم الذين يحتكرون وظائف الترجمة الى العربية ومنها ٠ ويقوم هذا التفسير الجديد على أن كلمة

« مجريط » مشتقة من لفظ يعنى الحجارة أو الصخر ، ولابد أن هـــذا المفسر الذى كان يعرف العربية انما قصد أن لفظ مجريط مرتبط بكلمة « محجر » أى المكان الصخرى الكثير الحجارة • على أنه يضيف الى ذلك أن معنى الكلمة « حجارة النار » ، ويبدو أنه قصد تأويل تلك الجملة الشائعـــة التى كانت تذكر أن « مدريد مدينة بنيت على الماء ، تحيط بها النار من كل جانب » • والتفسير فيه تكلف ظاهر وان كانت قيمته فى أن المفسر قد فطن الى اسم مدريد الأول أى « مجريط » بالجيم •

٥ ـ وقد أورد تماريد المذكور نفسه تفسيرا آخر كان هو الذى قدر له الشيوع والانتشـــار اذ قال ان الاسم ربما كان مأخوذا من كلمة عربية تعنى « الجامعة » أو « مجمع العلم » ، ويبدو أنه قصد بذلك اما كلمة «المدرسة» أو «المحضر» بمعنى مجلس العلم ، ولكن هذين التفسيرين لا يستقيمان الا باعتبار اسم المدينة « مدريد » لا « مجريط » •

على أن هذا التفسير الأخير هو الذى لقى قبولا من أهل العلم فى اسبانيا خلال النصف الأخير من القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، وقد تردد صداه مثلا فى أبيات للشاعر المسرحى الكبير لوبى دى فيجا Lope de Vega اذ يقول :

« لقد سماها العرب اذ بنوها « مدريد »
لفظا يعنى فى لغتهم « أم العلوم »
اما لأنهم اتخذوا منها مدرسة تلقن فيها كل الفنون
أو لأن أرضها كانت ـ كما هى الآن ـ
خصبة بالعباقرة الأفذاذ فى كل علم » •

٦ ـ وآخر تفســـير عربى للفظ « مجريط » هو الذى قاله نونيث دى كاسترو Nuñez de Castro فى سنة ١٦٦٩ ، وهو ينص

على أن العرب أطلقوا عليها ذلك الاسم الذى يعنى عندهم « مطلع الشمس » فمعناه اذن : « مدينة الشمس » وذلك بسبب ما يلاحظ من اشراقها وبهجتها ولمعان الضوء فيها ، وربما كان مما أوحى بهذا التفسير اسم ذلك الميدان الذى يتوسط مدريد والذى يدعى حتى الآن « بوابة الشمس Puerta del Sol » ، ولابد أن صاحب هذا التأويل أراد أن يربط بين اسم « مجريط » ولفظ «مشرق» ٠

※ ※ ※

غير أن هذه التأويلات العربيـــة لاسم «مجريط» أو «مدريد» كانت تبدو فى نظر بعض العلماء الاسبان ولاسيما فى عصـــور التعصب الدينى والمذهبى أمرا لا يمكن قبوله ، اذ كانوا يرون فيه اعلاء لشأن العرب وتنويها بالحضارة الاسلامية وهو أمر لم يكونوا مستعدين للتسليم به ٠ ومن هنا ظهر مرة أخرى ذلك الاتجاه الذى كان يسعى لايجاد تأويل لاتينى بل اغريقى فى بعض الأحيان لاسم مدريد ٠

٧ ــ ومن قبيل هذه التأويلات ما نراه فى كتاب خيرونيمودى كنتانا Jeronimo de Quintana عن «تاريخ مدريد منذ العصر القديم» « Historia de la antiguedad de Madrid سـنة ١٦٢٩ » ، من محاولة تفنيد تلك الاشتقاقات العربية ، واثبات أن أصل اسم مدريد القديم هو اللفظ الاغريقى Mantua الذى جعله الرومان Maioritum اشارة الى اتساع خطط المدينة وعظمها على عهدهم ، وهذا الاسم هو الذى حرفه العرب الى Magerito (مجريط) ٠ ويستدل كنتانا على رأيه بأن أسوار مجريط القديمة ليست عربية ، بل رومانية ، وان كان يعترف بأن العرب كان لهم بعض الفضـــل فى الاهتمام بالمدينة واتخاذها مركزا ممتازا للعلوم والثقافة ٠

والحقيقة أن الرأى الذى نادى به كنتانا ليس جديدا ، بل هو احياء للرأى القديم الذى تضمنته أبيات الشاعر خوان أورتادودى

مندوثا التى أشرنا اليها من قبل • أما ما ذكره من تسمية الاغريق لها بلفظ مانتوا ومن انشاء الرومان لأسوارها وخططها فهو مالم يأت عليه بأى سند تاريخى مقبول • ومن هنا لم يكن لتفسيره قبول فى الأوساط العلمية فى مدريد ، وظل الناس مؤمنين بان المدينة عربية الأصل وبأن اسمها ينبغى أن يكون عربيا كذلك •

٨ ـ وقد تأيدت هذه الفكرة فى خلال القرن الثامن عشر ، ولاسيما بعد أن اعترف بصحتها مستشرق له وزنه ، هو ميخائيل الغزيرى Miguel Casiri ، وكان عالما لبنانى الأصل استدعاه ملك اسبانيا كارلوس الثالث لكى يقوم بفهرسة المخطوطات العربية فى مكتبة الاسكوريال • وقد أصدر الغزيرى فهرسته هذه فى مجلدين نشرا باللاتينية بين سنتى ١٧٦٠ و ١٧٧٠ •

وكان مما قاله الغزيرى بمناسبة الحديث عن مسلمة المجريطى أن «مجريط» ـ وان كان ذا صلة باللفظ اللاتينى Maioritum ـ فانه كذلك لفظ «افريقى» معناه «مجرى الماء او الطريق الواسع» (باللاتينية aquaeductum et curriculum) • ويبدو أن الغزيرى فى نظره لكلمة «مجريط» قد فطن الى أن الجزء الأول منها «مجرى» وعلى هذا الأساس فسرها بأنها المكان الذى يجرى فيه الماء أو الساحة التى تجرى فيها الخيل ، ولو أن الذى لم يفسره لنا الغزيرى هو تلك النهاية الغريبة « الياء والطاء » التى اضيفت الى ذلك اللفظ العربى •

وعلى كل حال فان المكانة التى كان العالم اللبنانى يتمتع بها فى الأوساط العلمية الاسبانية جعلت الباحثين يعودون الى الاقتناع بالأصل العربى للكلمة والدفاع عن هذا الرأى ، ولو أن تأويل الغزيرى لم يكن واضحا كل الوضوح ولا سادا لكل الثغرات •

٩ ـ ويشبه هذا الرأى تفسير آخر أعلنه خوان أنتونيوبيليشر Juan Antonio Pellicer فى كتابه « خطاب حول آثار مدريد القديمة

Discurso sobre varias antiguedades de Madrid (سنة ١٧٩١)
وهو تفسير اعتمد فيه هذا المؤلف على كتاب للمستشرق البرتغالى جوان دى سوسا Joao de Sousa عن «آثار اللغة العربية فى البرتغالية» (سنة ١٧٨٩) ، اذ قال ان لفظ «مجريط» يتألف من كلمتين : «ما» أى ماء و «جريت» وهو تحريف للفعل «جرى» ، فمعناه اذن الماء الجارى • ولكن هذا التفسير بدوره بين التكلف •

١٠ — غير أن العلماء خلال العصر التالى (القرن التاسع عشر) بدأوا يفقدون الثقة فى أمثال هذه التأويلات العربية • وكان بليثر نفسه هو أول من أعان على هذا الاتجاه الجديد ، فنحن نجده فى كتاب آخر له يعدل عن رأيه الأول ويشكك فيه بعد أن ذكر صديقه المستشرق الاسبانى خوسيه أنتونيو كوندى José Antonio Conde أن لفظ «مجريط» لا يعنى شيئا فى العربية ، وذلك بمناسبة نشره للقطعة الخاصة بالأندلس من جغرافية الادريسى (سنة ١٧٩٩) •

ومن هنا عادت الى الأذهان تلك التأويلات القديمة التى ترد الاسم الى الاغريقية واللاتينية ، غير أن اجدر هذه التأويلات بالاهتمام هو ذلك الذى اقترحه جوفانتيس Govantes فى كتابه « المعجم الجغرافى التاريخى لاسبانيا اذ قال أن « مدريد » تعنى « النهر الأم » (من الأصل mater بمعنى الأم) • ولكن هذا الأصل لم يكن من السهل قبوله لسببين : الأول هو أنه لم يدخل فى حسابه التسمية العربية القديمة « مجريط » وهى التى ظلت مستخدمة بين النصارى بعد ذلك ، ثم انه لم يفسر كيف تحول الحرف الأخير الى دال فى الاسم الحديث للمدينة •

١١ — ويأتى القرن العشرون ، ويعيد المؤرخون وفقهاء اللغة بحث مسألة اشتقاق اسم العاصمة الاسبانية ، اذ تبدو كل تلك الآراء السابقة بعيدة عن الاقناع مفرطة فى التكلف ، ويتجنب الباحثون تلك التأويلات التى ترد اسم المدينة الى أصل عربى لاسيما

بعد أن يلقى أحد كبار المستشرقين الثقات مثل الألماني زايبولد Seybold رأيه في ذلك فيقول « ان كل التأويلات السابقة التى تجعل اسم مجريط أو مدريد مشتقا من أصل عربى ليست الا تكهنات ألقيت فى غير تثبت ودون أن يقوم عليها أى دليل » ، ويزداد الباحثون اقتناعا بهذه الفكرة بعد أن رأوا أن ميجيل أسين Miguel Asin Palacios شيخ المستشرقين الاسبان فى النصف الأول من هذا القرن قد استبعد لفظ «مجريط» لا من قائمة الأسماء الجغرافية ذات الأصل العربى فحسب بل حتى من قائمة الألفاظ التى يحتمل أن يكون لها تأويل يمت الى العربية بصلة .

وأفسح تخلى المستشرقين والمتخصصين فى الدراسات العربية عن الميدان الطريق أمام المتصيدين لكل اشتقاق آخر مهما كانت غرابته وبعده عن المنطق .

وكان من أول هذه التأويلات الجديدة ما قاله الأب فيدل فيتا Fidel Fita فى سنة ١٩٠٢ من أن لفظ Magerit مركب من كلمتين لاتينيتين : magus بمعنى حقل أو معسكر أو فحص و ritum أى مخاضة أو طريق أو قنطرة على النهر ، وأن اللفظ اذن يشير الى الفحص المنخفض الممتد على ضفاف نهر المانثانارس (نهر مدريد) تحت أقدام أسوار المدينة .

١٢ ـ وطلع علينا الباحث المانى يوهانس جونجفر Johannes Jungfer فى سنة ١٩٠٨ برأى آخر لا يقل غرابة عن سابقه هو أن أصل اسم مجريط هو اسم علم لشخص كان يدعى ميداريد Medarid ، ثم أبدلت الدال جيما طبقا لظاهرة لغوية لها بعض التكرار فى اللغة الأسبانية .

والتفسيران الأخيران فضلا عن تكلفهما البين وافتقارهما الى حجج مقنعة لا يضعان فى الحساب النطق الصحيح للجيم فى كلمة Magerit ، وهو نطق يجعلها رسما للجيم المعطشة العربية .

١٣ ـ ومثل هذا العسف هو الذى نلاحظه على التفسير الذى اقترحه اليونانى تيودوتوس Theodotos فى سنة ١٩٢٨ لذلك الاسم ، اذ حاول أن يرجعه الى أصل اغريقى ، فذكر فى مقال له نشره فى جريدة « الميساجير » الصادرة فى أثينا أن اسم «مدريد» مأخوذ من لفظ Madryeides المشتق بدوره من madrya الذى كان الاغريق يطلقونه على ضرب من البرقوق البرى يكثر فى جبال وادى الرمل Sierra de Guadarrama القريبة من مدريد ، وهو ثمر كانت الدببة تكثر من أكله . وقد كان من التوافق ان شجر هذا البرقوق والدب هما اللذان يتخذان شعارا لمدينة مدريد فى درعها المميز لها ، وهذا هو ما أوحى لأول وهلة بوجاهة ذلك التأويل وان كان فى حقيقته لا يخرج عن كونه شطحة أخرى من شطحات الخيال .

١٤ ـ ولم تعن كثرة هذه التأويلات وتنوعها على حل هـذه المشكلة اللغوية ، بل زادتها تعقيدا وتشعبا ، حتى ان العالم الاسبانى الجليل رامون منندث بيدال Ramon Menendez Pidal خالق علم فقه اللغة الحديث فى الاسبانية ورئيس المجمع اللغوى انتهى فى دراسة له حول اشـتقاق اسم « مدريد » فى سنة ١٩٤٥ الى أن مشكلته ليست عسيرة معقـدة فحسب ، بل هى « حالة ميئوس منها » . ومع ذلك فانه أورد افتراضا يقوم على أساس احتمال كون اسم « مجريط » مأخـوذا من لفظ كلتى(١) قديم مركب هو Mageterito ومعناه المخاضة أو القنطرة الطويلة . وهو تأويل لا يختلف عن التأويل السابقة التى لا تعتمد على حجة لغـوية ولا تاريخية مقبولة .

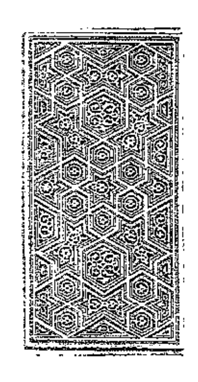
---

(١) الكلتيون Los celtas هم شعب قديم استقر فى الجزر البريطانية وفرنسا وشمال اسبانيا .

١٥ ـ وكان من آخر من أدلوا بدلوهم فى هذا الميدان العالم الأثرى الكبير مانويل جومث مورينو Manuel Gomez Moreno الذى قال انه يحتمـــــل أن يكون الاسم مأخوذ من لفظ majada الذى يعنى فى الاســبانية الدارجـــة مرعى الضـــأن (وهـــو لفظ يقول البعض انه مأخوذ من الكلمة الفينيقية magalia) غير أن أهم ما جاء فى تأويل جومث مورينو هو أنه فطن الى المقطع الأخير فى لفظ «مجريط» وهو الياء والطاء (It) النهائيتان ، فقد استقصى هذا المقطع وتتبعه فى اللغة الاسبانية ونوه بأنه يدل على التكثير ، فمعنى اسم مجريط حسب هذا التأويل « المكان الذى تكثر فيه المراعى » · وسنرى قيمة هذه الاشارة فيما نحن بصدده من الحديث عن مدريد الاسلامية (١) ·

(١) اعتمدنا فى هذا العرض على ما أورده أوليفر اسين فى كتابه : « تاريخ اسم مدريد » ، ط · مدريد سنة ١٩٥٨ ·

رأى جديد يضع ختاماً للجدل حول اسم "مجريط"



لم يكن فى كل هذه الآراء التىعرضناها ما يحل هذه المشكلة التى سماها منندث بيدال « حالة ميئوسا منها » .

ولكن العلم ليس فيه ما يبلغ فيه الأمر حد اليأس ، وقد شغلت مشكلة اسم مجريط اهتمام عالم اسبانى أصبح اليوم من أعظم علماء اللغة وفقهائها ومؤرخيها فى اسبانيا ، نعنى به الأستاذ خايمه أوليفر أسين Jaime Oliver Asin ، وقد كان من أهم ما توفر لهذا العالم من أدوات البحث اللغوى كونه قد جمع بين التبحر فى اللغة اللاتينية واللغات المشتقة منها والفقه باللغة العربية والتمكن من الدراسات الاستشراقية ، ولا غرو فهو ابن أخى شيخ المستشرقين الاسبان فى القرن العشرين ميجيل أسين بلاثيوس صاحب الدراسات الكثيرة التى جلى فيها أثر الثقافة الاسلامية والعربية فى اسبانيا وفى أوربا المسيحية بوجه عام . وقد ورث أوليفر أسين عن عمه هذه المعرفة العميقة باللغة العربية والتبحر فى الأندلسيات . وهكذا تيسرت له الأدوات اللازمة لبحث مشكلة اسم « مجريط » من جديد،

ومن أولها معرفة العربية والاطلاع الواسع على مختلف مظاهـــر الحضارة الاسلامية فى الأندلس • وهذا هو ما يجب أن يتوفر لكل من يتعرض للحديث فى أى موضوع من مواضيع التاريخ الاسبانى القديم أو حتى الحديث •

عكف خايمه أوليفر أسين على دراسة اسم مدريد متسلحـــا بهذه الذخيرة من العلم بذلك التراث الاسلامى والمسيحى الذى كانت الأندلس خير مزاج له • وبدأ بداية سليمة كانت هى الوحيدة التى تكفل له الوصول الى النتيجة المرجوة ، اذ جعل أول ما وجه اليـــه اهتمامه هو مولد قلعة مجريط على أيدى العرب ، وذلك بعد أن أجمع كل المؤرخين مسلميهم ونصاراهم على أن مجريط تدين للمسلمين بفضل خلقها •

صحيح أنه من المحتمل أن تكون قد وجدت قريبا من موضـــع مجريط قبل الفتح الاسلامى قرية صغيرة مثل عشرات القـــرى الضئيلة التى كانت قريبة من ضفاف فروع نهر التاجو Rio Tajo النابعة من جبل الشارات والتى تخترق الهضبة الوسطى فى اسبانيا من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، قرية كان سكانهـــــا يشتغلون بالرعى والصيد فى الغالب •

وكان أول ما ينبغى أن يتوفر الباحث على دراســـــته هو الاجابة على هذا السؤال : لماذا أختار العرب مكان هذه القـــرية الضئيلة التافهة لكى يبنوا عليه قلعة لها خطرها ؟ وكيف تحولت هذه القلعة فى عهدهم الى « مدينة شريفة » على حد وصف الحميرى لها فى معجمه الجغرافى ؟

ان الذى يتأمل الفتح العربى لاسبانيا وأبعاده وحدودهوارتباطه بالجغرافيـــة الطبيعية للبلاد يستطيع أن يجد تفسيرا لهـــذين السؤالين •

فنحن نعرف أن الحملات العربية الأولى فى الأندلس تمكنت فى البدء من الاستيلاء على معظم شبه الجزيرة ولم تترك منها الا الركن القصى الواقع فى الشمال الغربى فى المنطقة التى تدعى جليقية Galicia ، واعتقد قادة المسلمين أنهم أتموا فتح الجزيرة فتحولوا بجهودهم الى الركن الشمالى الشرقى والى ما وراء جبال البرتات (البيرينيه) ، واستصغروا شأن تلك المنطقة الجليقية وما جاورها على الساحل الكنتبرى ، دون أن يقدروا أن هذه البقعة الصغيرة هى التى سينجم منها عليهم شر مستطير ينتهى الى اضعاف دولة الاسلام فى الأندلس ثم القضاء عليها بعد ثمانية قرون . فقد تركزت المقاومة النصرانية هناك تحت قيادة « بلاى Pelayo » الذى خرج على المسلمين فى أشتوريش Asturias . وكان من سوء حظ العرب انه لم تكد تمضى فورة الفتوح الأولى حتى نشبت الفتن والحروب الأهلية بين صفوفهم : بين العرب والبربر وبين الشاميين والبلديين وبين المضرية واليمانية ، وأفنت هذه الحروب كثيرا من المسلمين فتراجعوا عن شمال شبه الجزيرة بغير هزيمة ، وأخلوا منطقة واسعة كانت تنتهى فى الشمال الى حوض الدويرة ، ثم انحدرت حتى حوض التاجو ، ولم تتمهد الأمور لعبد الرحمن الداخل منشىء الامارة الأموية حتى كانت حدود الدولة الاسلامية تبدأ من ناحية الشرق عند بنبلونه Pamplona فى أقصى الشمالى الشرقى ثم تنحدر الى تطيلة على وادى الابرو Rio Ebro ثم تنحرف الى الجنوب الغربى الى سرية Soria فمدينة سالم Medinaceli فوادى الحجارة (من ثغور طليطلة) على وادى التاجو فطلبيرة Talavera فقورية Coria حتى تنتهى فى الغرب الى قلمرية Coimbra (فى البرتغال) على ساحل المحيط الأطلسى ، أى أن الأندلس الاسلامية فقدت ربع شبه الجزيرة على وجه

التقريب قبيل مقدم عبد الرحمن الداخل ، وبعد الفتح الاسلامى بنحو أربعين سنة(١) ٠

ولو أننا أنعمنا النظر فى هذه الحدود الفاصلة بين المملكتين الاسلامية والمسيحية طوال عهد الأمويين أمراء قرطبة لوجدنا أنها تكاد تساير فى وسط شبه الجزيرة تلك السلسلة العالية من الجبال التى كانت تعرف باسم « الشارات » أو بجبال وادى الرمل Sierra de Guadarrama وهو الاسم الذى أطلقه العرب عليها ومازال هو المستخدم فى اسبانيا حتى اليوم ٠ وكانت أهم مدينة تقع فى هذه المنطقة هى طليطلة Toledo عاصمة اسبانيا على عهد القوطيين ، واذا كانت طليطلة فى ظل الحكم العربى قد فقدت مركزها الأول منذ أن اتخذ المسلمون قرطبة عاصمة للأندلس فانهم مع ذلك قد أولوها اهتماما كبيرا باعتبارها « الثغر الأدنى » المتاخم فى وسط شبه الجزيرة للنصارى ٠ ثم انها كانت مدينة كثيرة الثورات، وكان أهلها نزاعين الى الخلاف مما جعل أمراء بنى أمية يعملون على تشديد المراقبة والحراسة عليها ، خوفا من حركات الثورة والتمرد بها من ناحية وتوقيا لغارات النصارى من قواعدهم القريبة منها على السفوح الشمالية لجبال وادى الرمل مثل شقوبية Segovia وابلة Avila

وهذا هو ما حمل أمراء الأندلس على أن يحصنوا خطوطهم الدفاعية الممتدة بين سرقسطة وطليطلة فينشئوا على طول هذا الخط عددا من القواعد المنيعة مثل سرية ومدينة سالم ووادى الحجارة ٠

غير أن شوكة النصارى كانت قد بدأت تشتد منذ منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادى) ولاسيما منذ أن ولى عرش

(١) آنظر الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢

اشتوريش وليون الملك المسيحى الفونسو الثالث الملقب بالعظيم Alfonso III el Magno (٢٥٢ ـ ٢٩٦ هـ : ٨٦٦ ـ ٩٠٩ م) ، اذ تمكن هذا الملك الشديد المراس من فرض سيطرته على معظم حوض الدويرة ، بل انه بدأ يشن غارات تخريبية شديدة مقتحما المناطق الاسلامية فى حوضى التاجه ووادى آنة Rio Guadiana

وهكذا بدا للأمير محمد معاصر هذا الملك وغريمه أن الخط الدفاعى الواصل بين سرقسطة وطليطلة لم يعد من المنعة بحيث كان ، فقد أصبح الخطر النصرانى قريبا مباشرا ، وتحتمت تقوية مدن الثغر واحاطتها بنطاق جديد من القلاع والاهتمام بوسائل تموينها وامدادها . وعلى ضوء هذه الحقيقة ينبغى أن نفهم نص ابن حيان الذى سبق أن أوردناه والذى قال المؤرخ القرطبى فيه ان من آثار الأمير محمد الجميلة ومن مظاهر عنايته التامة بمصالح المسلمين والتهمم بثغورهم بناء حصن اشتيرش لقلال مدينة سالم وبناء حصون طلمنكه ومجريط وبنه فراطه لأهل طليطلة . بل اننا نعرف عددا آخر من القلاع بناها على الأرجح الأمير نفسه فى هذه المنطقة الواقعة على سفوح جبال وادى الرمل الجنوبية ، مثل قنالش Canales وولموش Olmos وقلعة الخلفاء Calatalifa (١) (وهذه الأخيرة تحمل اسما عربيا كما نرى) .

ومن هنا نرى كيف انعكس تعمير العرب لهذه المنطقة التى تتوسطها مجريط على أسماء جبالها وأنهارها وقلاعها وبروجها وقراها ومنازلها . وسنذكر فيما يلى أمثلة على هذه الأسماء الجغرافية الواقعة على المواضع القريبة من مجريط وهى اما أسماء عربية خالصة أو مولدة من عناصر عربية ولاتينية .

نجد أولا اسم « وادى الرمل » الذى يطلق على الجبال الواقعة فى شمال مجريط ، وكذلك على النهير الذى تقع المدينة عليه من

---

(١) أنظر ياقوت الحموى : معجم البلدان تحت مواد المواضع المذكورة .

فروع وادى التاجه ، وقد ظل نهر مجريط يدعى بهذا الاسم العربى حتى القرن السادس عشر حينما بدأوا يدعونه بأسماء أخرى حتى استقروا على تسميته بنهر المانثانارس Manzanares نسبة الى القرية الواقعة فى منبعه والمدعوة بهذا الاسم ، ومعناه شجر التفاح لكثرة هذا الشجر فيها • أما اسم وادى الرمل فمازال يطلق حتى اليوم على فرع آخر من فروع نهر التاجه الى غرب مدريد •

ومن الفروع الأخرى لهذا النهر فى تلك المنطقة نهير وادى الحجارة الذى تقع عليه هذه المدينة ، ثم نهر Guadalix وهو اسم مركب يتألف من كلمة « وادى » العربية ، ولفظ آخر لم يتفق على تفسيره اللغويون بعد • وعلى هذا النهير تقع قرية صغيرة تحمل نفس هذا الاسم ، ويخرج من النهير المذكور فرع صغير يدعى Albala وهو مأخوذ من اللفظ العربى «البلاعة» (بمعنى الدوامة المائية) • وهناك فرعان آخران لنهر تاجه فى هذا الاقليم أولهما « شرنبة » Jarama الذى تقع عليه طلمنكة ، و Daralcalde (دار القاضى) و Vaciabotas وهى تتألف من كلمتى Vacia المحرفة عن لفظ « فحص » العربى و botas اللاتينية الأصل ، و Aldovea (الضويعة تصغير الضيعة) و Ambroz (عمروس ، وهو اشارة الى اسم علم) و Ajalvir (فج البير) و Albir (البير) •

وأما الفرع الثانى فهو تاخونيا Tajuña واسمه لاتينى الأصل ، غير أنه تقع عليه بعض القرى ذات الأسماء العربية مثل Valdaracete وهى كلمة مركبة من Val التى تعنى « وادى » باللاتينية ثم Daracete (دار زيد) •

أما وادى المانثانارس الذى كان يدعى قديما وادى الرمل والذى تقع عليه مجريط فنجد فيه كذلك عدة أسماء عربية منها Vaciamadrid (فحص مجريط) و Salmedina (فحص المدينة) ، وهناك ربوة

مرتفعة فى مشارف جنوب مدريد مازالت تحمل حتى اليوم اسم Almodovar (المدور) ، ويسهل على الرائى أن يطالعها من أى مكان فى العاصمة ٠

وتكثر الأسماء العربية بصورة واضحة على طول حوض النهير الذى كان اسمه القديم «وادى الحجارة» والذى يدعى الآن Henares وهو الذى تقع عليه مدينة وادى الحجارة وقلعة عبد السلام (التى تدعى الآن Alcala de Henares) و Azuqueca (الزقيقة ــ تصغير الزقاق) و Alcolea (القليعة تصغير القلعة) ــ ٠٠٠ مما يطول بنا الأمر لو أننا حاولنا استقصاءه(١) ٠

أما فيما وراء جبال وادى الرمل الى الشمال فالملاحظ أننا نرى نقلة مفاجئة ، اذ أن الأسماء العربية تقل فيها بصورة واضحة ، وهذا أمر سهل التفسير اذ أن هذه الجبال كانت حدود المملكة الاسلامية فى الأندلس طوال أيام خلافة بنى أمية وعصر الطوائف الى أن اشتدت حركة الزحف النصرانى وانتهى الصراع بسقوط طليطلة فى سنة ٤٧٨ (١٠٨٥) ٠

على أن هذه المنطقة لا تخلو من أسماء قليلة نادرة توحى الينا بنفوذ اللغة العربية ٠ وقد كان من أهم هذه الأسماء التى تستحق وقفة من فقه اللغة اسم موضع يقع الى الشمال الغربى من مدريد على بعد نحو أربعين كيلومترا ، هو Alpedrete ، فهذا الاسم يحمل عنصرا عربيا لا مجال للشك فيه هو أداة التعريف ــ Al ، أما بقية اللفظ pedrete ــ فانها تتكون من لفظ لاتينى الأصل هو petra الذى يعنى الحجر (بالاسبانية الحديثة piedra) ،

(١) فى نهاية هذا البحث قائمة بالأسماء ذات الأصل العربى فى المنطقة المحيطة بمدريد ٠

ثم المقطع الأخير الذى تنتهى به الكلمة وهو ete ـ ، وقد استقصى الأستاذ أوليفر اسين هذا المقطع فى أعلام جغرافية كثيرة فى اسبانيا فوجد أنه يتوارد بصور مختلفة أهمها النهاية it ، فرآه فى أعلام كثيرة فى الأندلس الاسلامية ، وكان الجغرافيون والمؤرخون العرب يكتبونه بهذه الصورة (ـيط) نذكر من هذه المواضع :

فرغليط Forgollitas (فى جبال شقورة ، من أعمال جيان)
قنيط Canete (من أعمال مالقة) وادى سليط
Guadacelete (من أعمال طليطلة) مسنيط Massanet (قلعة قريبة من لوشة من أعمال غرناطة) القرضيط Alcardete (من أعمال طليطلة)

وتتبع هذه الألفاظ ـ وأمثالها كثير على طول جغرافية اسبانيا وعرضها ـ ينتهى بنا الى التسليم بصحة الرأى الذى كان العالم الاثرى الاسبانى جومث مورينو أول من نبه اليه ، وهو أن هذه النهاية t ـ وما شابهها تدل دائما على التكثير ، وأغلب الظن أن هذه النهاية آتية من المقطع اللاتينى etum ـ الذى يعنى التكثير أيضا فهى أشبه ماتكون فى العربية بصيغة « مفعلة » التى نرى من أمثلتها « مسبعة » أى أرض كثيرة السباع ، و « مذأبة » أى كثيرة الذئاب .

ففى الكلمات التى سبق أن أوردناها نجد أنها كانت دائما تتضمن معنى التكثير ، ففرغليط هى تحريف الكلمة اللاتينية Fragoletum أى المكان الذى يكثر فيه ثمر الكريز (الذى يسمى Fragula) ، وقنيط هى اللاتينية cannetum أى المكان الذى يكثر فيه القصب (canna) ووادى سليط ، معناه الوادى الذى يكثر فيه الملح ((salitus)) ، ومسنيط هو المكان الذى

يكثر فيـــه التفاح (بالقشتالية القديمة massana وبالحديثـــة manzana) ، والقرضيط هو الموضع هو الذى يكثر فيه نبات شوكى كان الأندلسيون يعرفونه باسم القرضيل ، ويسمى اليوم cardillo ، والاسم آت من اللاتينية Cardethum

وكلمة Alpedrete التى أشرنا اليها فى أول هذا الحديث تنتمى بغير شك الى هـــذه المجموعة ، ولعلهـــا كانت تكتب بالعربيـــة « البطريط » ، ومعناها المكان الذى تكثر فيه الحجارة (Petra) ، وهى كذلك فى الواقع اذ أنها تقع فى موضع صخرى تقتطع منـــه الأحجار اللازمة فى مبانى العاصمة ٠

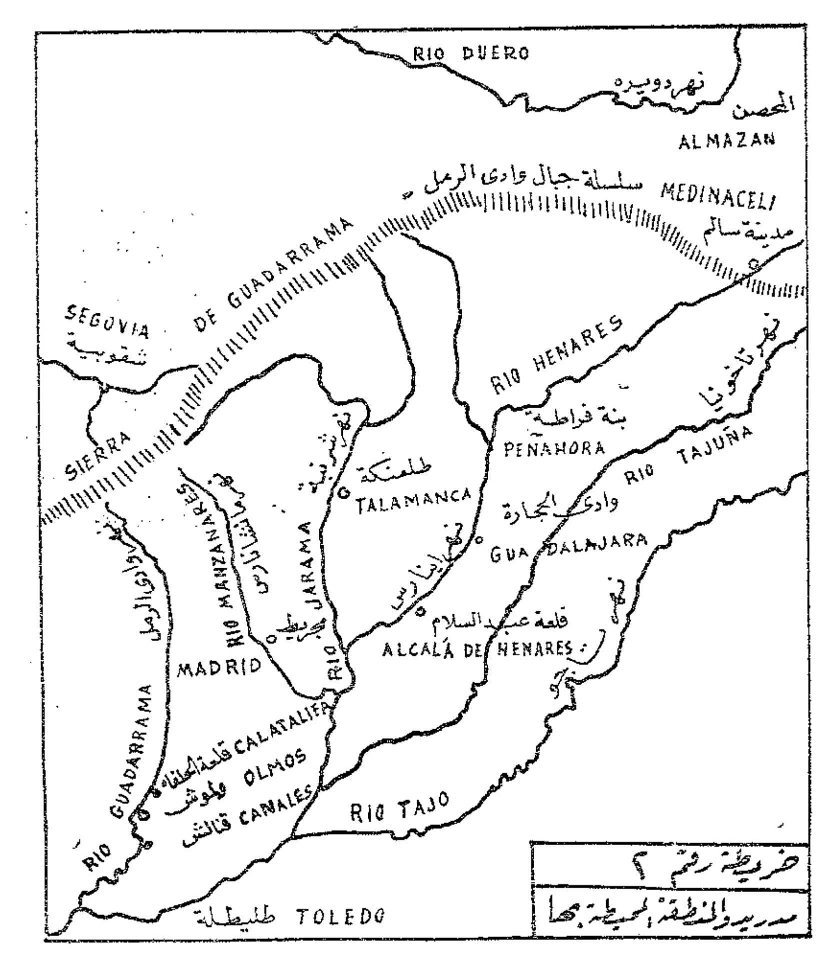
فاذا سلمنا بأن النهاية (ـــيط) التى نراها فى آخـــر لفظ «مجريط» من هذا النوع أى تدل على التكثير فانه يبقى علينا أن نعرف مايدل عليه المقطع الأول «مجر» ٠٠

"مجريط" .. مدينة منشأة على الماء

من الجمل الشائعة التى يمكن للمرء أن يسمعها من أهل مدريد حتى اليوم قولهم أن مدينتهم قد أنشئت على بحر من الماء • بل اننا نرى مؤلفا مسرحيا هو خوان رويث دى ألاركون يقول فى احدى مسرحياته أن مدريد تفضل البندقية فى كثرة مياهها •

والحاح أهل مدريد منذ أن أنشئت على هذه الاشارات الى وفرة المياه فى بلدهم يستحق وقفة متأملة . من أين لمدريد هذا الماء ؟ بينما نعرف أن النهر القريب منها وهو المانثانارس (الذى كان يدعى وادى الرمل قديما) ليس الا نهيرا صغيرا ضيقا كان دائما مثار سخرية الناس حتى اليوم • فنحن نرى الشاعر والمسرحى الاسبانى العظيم لوبى دى فيجا Lope de Vega وهو من أهل مدريد يقول عنه متوجها بالخطاب الى بعض رجالاتها وكبرائها :

« أنه لأمر ممض مهين
جدير بأن تغسل عنا عاره :
أن يكون نهر المانثانارس قريبا منا
وأن يتوقف الماء عندنا على شهر أبريل » •



مدريد والمنطقة المحيطة بها • ومنهـــا يتبين موقع مدريد على السفوح الجنوبية لسـلسلة جبـال وادى الرمل ، أى فى منطقة الثغور بين الأندلس الاسلامية واسبانيا المسيحية • وهذا هو السبب الذى من أجله أنشأ الأمير محمد بن عبد الرحمن سلسلة من القـلاع الحصينية لتعزيز خطوط الدفاع الاسلامية ممتدة بين طليطلة (الثغر الأدنى) ومدينة سالم (الثغر الأوسط) وهى من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى : قنالش ، ولموش ، قلعة الخلفاء ، مجريط (مدريد) ، طلمنكة ، بنة فراطة • هذا فضلا عن الاهتمام بالمـدن القائمة من قبل فى هذه المنطقة مثل طليطلة ووادى الحجارة وقلعة عبد السلام ومدينة سالم •

ويعنى لوبى بذلك أن نهر المانثانارس لا يكاد يغنى شيئا فى امداد مدريد بالماء ، فهى تتوقف على شهر ابريل وهو موسم المطر وان كان بجوارها نهر محسوب عليها • وكثيرا ما يسخر الناس اليوم من هذا النهير المتواضع ، فيقولون عنه ان له فضلا عـــلى سائر أنهار الدنيا اذ يمكن للناس عبوره بكل طرق المواصـــلات الممكنة : على ظهر مطية أو حتى سيرا على الأقدام ، مشيرين بذلك الى جفافه فى معظم أوقات السنة •

وهنا نرى أنفسنا أمام مشكلة جديرة بالنظر : ان مدريد أو مجريط مدينة محدثة أنشأها العرب لكى يسدوا بها حاجـــــة استراتيجية ماسة للثغور الاسلامية المتاخمة للنصارى ، وسرعان ما اتسعت القلعة العربية حتى أصبحت « مدينة شريفة » كما يصفها سائر الجغرافيين العرب ، بل اننا نرى من وصفهم لها أنها كانت مدينة تحفها الخضرة وتكتنفها الزروع والأشجار وتكثر من حـــولها الحدائق والجنات منبسطة تحت أقدام أسوارها ، والذى يتأمل نهر المانثانارس المتواضع يوقن بأنه لا يمكن أن يكون هو الذى أمد هذه المدينة بما هى فى حاجة اليه من مياه ، فكيف حل العرب مشـــكلة الماء فى مجريط ؟ ومن أين أتوا اليها بما كان كفيلا بأن يحولها الى بلد استطاع بعد فترة من الزمن أن يصبح هو عاصمة اسبانيـــا كلها ؟

الواقع أن مجريط لم تكن المدينة الأولى التى يلتقى فيها العرب بمثل هذه المشكلة ويوفقون الى حلها ، بل ســـبقتها فى المشرق والمغرب مدن أخرى مشابهة • وكان المخرج من هذه الصعوبة هو أن يبحث منشئو المدينة فى جوف الأرض عن مياه يمكن أن تسد حاجة السكان مادامت المياه على سطح الأرض قليلة لا تفى بالمطلوب •

أما استخراج هذه المياه الجوفية فـــكان يتم بطريقين : الأولى تقوم على أستنباطه من باطن الأرض بآلات رافعة تشبه الســواقى

التى يستخدمها الفلاحون فى مصر ، وهى طريقة استخدمها عـــرب الأندلس بكثرة ، وكانوا يطلقون على هذه الآلات اسم «النواعير» جمع «ناعورة» ، وقد نقلها عنهم نصارى اسبانيا ، ويدل على ذلك أن اللفظ المستخدم فى الاسبانية للتعبير عن هذه الآلة وهو noria مأخوذ عن ذلك اللفظ العربى ، والوعاء الذى يستخـــدم فى تلقى المـاء من جوف الأرض وصـبه على سطحها يسمى فى العربيـــة « القادوس » ، وهذا اللفظ بدوره قد انتقل الى الاسبانيـــة فى صورة arcaduz •

وقد كانت « النواعير » شائعة فى مدريد شيوعها فى كل مدن الأندلس الاسلامية وقراها ،وكانت أكثر ما يميز العاصمة الاسبانية حتى منتصف القرن الماضى • ومازال الناس يذكرون هناك عـددا منها أشهرها التى كانت موجودة فى حديقة النبـــاتات فى متنزه مدريد الــكبير الذى يسمى « الرتيرو El Retiro » • وفى فحص المدينة الذى يسمى الآن Casa de Campo، وبجوار « باب قشتالة Puerta de Castilla » حيث كانت هناك ناعورتان ضخمتان كل منهما تدر من الماء ما يكفى لرى ثمانين فنيقا من الأرض • ويرجـع الى هذه النواعير جانب من الفضل فى كثرة الحدائق والخضرة فى مدريد •

أما الطريقة الأخرى فقد كانت اقامة شـــبكة من المجارى أو القنوات الجوفية تمتد تحت أرض المدينة وتسد حاجات منازلها من المـــاء بنسبة مقدرة معلومة ، وهـــذه الطريقة هى التى كانت أكثر استخداما فى مدريد ، وذلك لأن النواعير تصلح لرفع الماء اذا كان على مسافة قليلة العمق من سطح الأرض . أما حيث يوجد الماءعلى عمق شديد فانها لاتأتى بالنتيجة المرجوة فضلا عن صعوبة تطبيقها .

وتتلخص هذه الطريقة فى اختيار مكان قريب من المدينـــة يرتفع مستوى الأرض فيه على سطحها فيها ، ثم العمل على حفـر

عدد من الآبار المتقاربة فيما بينها ، والتوصيل بعد ذلك بين هـذه الآبار بمجارى جوفية تبنى دائما من الطوب الأحمـر ، وتكون من السعة والارتفاع بحيث تسع قامة رجل يمكنه المشى فيهـا • وفى قاع هذه المجارى توجد تلك القنوات المصنوعة من الفخـار والتى تحمل الماء بين الآبار المذكورة ، ويراعى فيها أن تكون على انحدار خفيف متجهة نحو المدينة ، وهنـاك تحفر فى باطن الأرض تحت منازل المدينة شبكة من المجارى تتفرع على الأحياء والمنازل وعلى النوافير والحدائق والمتنزهات العامة .

سوابح إسلامية لمدريد

وهذه الطريقة التي ظلت مستخـــدمة في مدريد منذ انشائها حتى منتصف القرن الماضي ـ حينما بدأ تطبيق نظام جديد هو الاتيان بالماء من بحيرة صناعية قـــرب جبل وادي الرمل الى المدينة عن طريق القنـــاة التي تدعى باسم « ايزابيل الثانية Canal de Isabel II » ـ هي نفسها التي استخدمها المسلمون في مدن أخرى في المشرق والمغرب على السواء.

١ ـ ومن أول هذه المدن تلك القائمة على الهضاب الشرقيــة المقفرة في ايران ، مثل نيسابور التي وصل فيها نظام شبكة القنوات الجوفية حدا عظيما من الاتقان أثنى عليه الرحالة القدامى والزائرون المحدثون ، وقد أشار اليه اليعقوبي والمقدسي في اعجاب كبير . وقد أصبحت هذه المدينة بفضل ذلك النظام مشرقة نضرة تحف بهـــا الحدائق والجنان ، ويذكر بعض زائريها أن الماء في بعض أنحائهـــا على عمق هائل من ســـطح الأرض بحيث لايوصل اليه الا بنزول سراديب تبلغ سلالم درجها سبعين سلمة . وقد بلغ من شـهرة هذه الشبكة المـائية في نيسابور أن ظريفا من الشــعراء هجاها فقال انه كان من الخير أن تعكس الآية فيها : فيسيح على وجههـــا الماء المتدفق تحت سطح الأرض ، وأن يدفن في جوفها النـــاس الذين يسعون على ظهرها .

٢ — وفى مرو نجد هذا النظام أيضا ، وقد بلغ من احكامه فى هذه المدينة الفارسية أنه كان فيها مجلس يقوم بتوزيع الماء على أحيائها ومنازلها وكان يدعى «ديوان الماء» ، وله رئيس يخضع له عشرة آلاف عامل كان من بينهم أربعمائة مهمتهم السهر على القنوات الجوفية بالتناوب ليلا ونهارا • وكان لدى هؤلاء ميزان للماء يقيسون بها الكميات المعينة للأحياء والمنازل •

٣ — وفى الجزيرة العربية عرف هذا النظام أيضا : فى الحجاز واليمن ، وكانت هذه المجارى المائية تسمى « الكظامة » (من كظم الماء أى حبسه) والفقير (من فقر الماء أى فجره وبثقه) . وقد وصفه لنا اللغويان الأصمعى وأبو عبيدة معمر بن المثنى وصفا يتفق مع ماذكرناه(١) •

٤ — وانتقل هذا النظام من مشرق العالم الاسلامى الى مغربه فقد عرف فى تونس وفى الواحات الموجودة فى جنوب الجزائر ، وكانت القنوات الجوفية تعرف هناك باسم « الفقارة » وقد عثر أخيرا على آثار لهذه القنوات فى واحة سدراتة على بعد ٨٠٠ كيلو متر الى جنوب مدينة الجزائر . وكانت سدراتة بفضل ذلك النظام المائى مدينة عامرة آهلة خلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، وتدل الأبحاث والحفائر التى أجريت هناك على أن الماء الجوفى كان يوجد على عمق يصل فى بعض الأحيان الى ستين مترا .

٥ — وفى المغرب الأقصى أيضا وجد هذا النظام ، نراه فى تافيلالت وفى مدينة مراكش . وان كان الاسم المستخدم للدلالة

---

(١) انظر لسان العرب ، مادتى كظم وفقر ، ونجد هناك تعريف الكظامة مثلا بأنها واحدة الكظائم وهى آبار تحفر فى بطن واد متباعدة ويخرق ما بين بئرين بقناة يجرى فيها الماء من بئر الى بئر •

على القناة الجوفية هناك هو لفظ « الخطارة » مشتقا من الخطر « بسكون الطاء » بمعنى اهتزاز الماء وتذبذبه ، وهو لفظ نراه أيضا مستخدما في الأندلس وقد وصفه لنا الجغرافى الأدريسى بالتفصيل فى « نزهة المشتاق » (١) ، وكان مما ذكره فى الكلام عن مدينة مراكش أن الذى ابتكر هذا النظام مهندس يدعى عبد الله بن يونس قدم الى المدينة بعد انشائها بقليل ، ولم يكن فيها فى ذلك الوقت الا جنة لأبى الفضل مولى أمير المسلمين السلطان المرابطى على بن يوسف بن تاشفين (تولى الحكم بين سنتى ٥٠٠ و ٥٣٧ هـ – ١١٠٧ – ١١٤٣م) اذ أن أهل مراكش لم يكونوا يعتمدون فى السقيا الا على الآبار البسيطة . ويظهر أن ابن يونس قام بدراسة طبقات الأرض هناك ، وتوصل بعد البحث والتنقيب الى ابتكار طريقة المجارى الجوفية فتوجه الى طرف من أطراف المدينة يعلو فيه مستوى الأرض على مثله فى داخلها ، ثم حفر فيها بئرا كبيرة ثم أوصل من قاعها قنوات تسير تحت الأرض فى انحدار حتى توصل الماء الى مختلف أحيائها قريبا من سطح الأرض . ويذكر الادريسى أن السلطان المرابطى أعجب بهذا الابتكار وأغدق على صاحبه عطاياه وصلاته ، وأن أهل المدينة سارعوا الى بناء قنوات أخرى تستمد من تلك القناة « الأم » التى أنشأها عبد الله بن يونس ، وهكذا اتسع عمران مراكش واكتنفتها الخضرة والحدائق ، وأصبحت قاعدة الدولتين المرابطية والموحدية وواحدة من أعظم مدن الغرب الاسلامى كله . والواقع أن متأمل كتب الجغرافية والرحلات لم يكن يتمالك الدهشة والاستغراب ازاء ما يصفون به مراكش من التمدن والعمران واتساع الزروع وكثرة الماء والشجر والثمر فيها اذ أنها مدينة لا تقع على نهر كبير ولا تكاد السماء تمطر فيها الا قليلا

(١) نزهة المشتاق ، نشر وترجمة راينهات دوزى ودى خويه ص ٦٨ من النص و ٧٨ من الترجمة .

ومع ذلك فقد كانت اشبه بواحة خضراء فى وسط صحراء جرداء مقفرة ولكن الادريسى فى نصه الذى أشرنا اليه استطاع أن يكشف لنا سر هذه المدينة التى مازالت تعتبر من أجمل مدن المغرب وأكثرها اشراقا ونضرة . وكان السر فى هذا الماء الذى عرف المهندس العبقرى ابن يونس كيف يولده من باطن أرضها .

ومازالت هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية باقية فى مدينة مراكش ، ويبلغ عددها نحو ٣٥٠ قناة يصل طول كل منها الى نحو خمسة كيلو مترات ، على أن الاهمال قد لحقها أخيرا وبطل استعمال عدد منها .

ويلوح أن المهندس الذى ابتكر نظام الخطارات كما ذكر الادريسى وغيره من الجغرافيين فى مراكش كان أندلسى الأصل ، ولنذكر أن السلطان المرابطى على بن يوسف نفسه كان على الأرجح من أم أندلسية وفى الأندلس قضى صباه وشبابه وتربى فى كنف علماء هذه البلاد ، وكان كثيرا ما يكل أمور دولته الى الأندلسيين (١) ، ولا سيما فيما يتعلق بالأعمال الانشـــــائية الكبرى . وقد نص الادريسى على أن مهندسين من الأندلس كانوا هم الذين تولوا انشاء القنطرة العظيمة القائمة على نهر تانسيفت ، وهى قنطرة أكثر الادريسى من اطرائها والتمدح بصنعتها ، ولهذا فليس من الغريب أن يكون ابن يونس قد قدم الى المغرب من الأندلس ، بل ربما كان مجريطيا أو من سكان هذه المنطقة التى تدل كل القرائن على أن المسلمين الأندلسيين قد استخدموا فيها نظام قنوات المياه الجوفية.

٦ ــ أما فى اسبانيا فضلا عن مجريط التى سنفصل الحديث عن هذا النظام فيها فاننا نجده حتى الآن مســــتخدما فى جزر

(١) انظر بحثنا « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ــ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠ ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

السعادة أو الجزائر الخالدات (المعروفة اليوم باسم جزر كناریاس) وهی كما نعرف تطل على سواحل المغرب الأقصى ، وأغلب الظن أنها انتقلت اليها من هناك قبل الفتح الاسبانی لهذه الجزر فی القرن الخامس عشر . وقد نص على شيوع هذا النظام فيها القس خوسيه دی سوسا José de Sosa فی كتابه عن « طبوغرافية جزيرة كناریاس الكبرى » ووصف لنا هذه القنوات الجوفية وصفا يتفق تماما مع ما يذكره الادريسی فی حديثه عن مراكش (١) .

٧ ــ وأخيرا يذكر السير س . بيكر فی كتابه « قبرص كما عرفتها فی سنة ١٨٧٩ » ان هذا النظام نفسه كان هو المتبع فی قبرص (٢) ولا شك فی أنه انتقل اليها من بلاد الشرق الاسلامی التی أحكمته وأتقنته الى أبعد مدى .

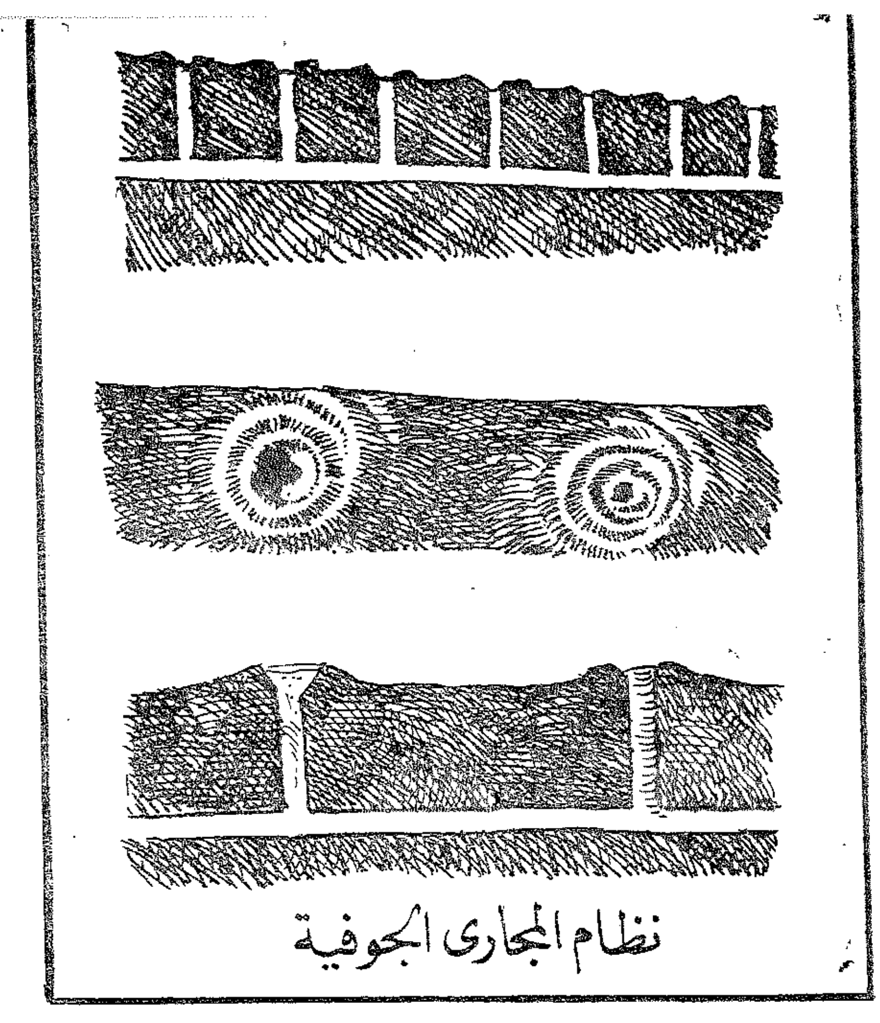
---

(١) انظر خايمه أوليفر أسين : تاريخ اسم مدريد ص ٨٩ .

(٢) نقل ذلك روبنز فی كتابه « قصة استنباط المياه والامداد بها
F.W. Robins, The Story of Water Supply. Oxford, University Press, 1946, PP. 116-118.

"نظام المجاري الجوفية في مدريد"

غير أن الغريب هو أنه لم يفطن أحد ممن توفروا على دراسة هذا النظام فى المشرق أو المغرب الى أنه هو الذى استخدم على أوسع نطاق وأحكمه في مدريد ، اذ أن العاصمة الاسبانية تدين بفضل سقياها وريها بل بحياتها كلها الى هذا النظام المبتكر الذى عرف العرب كيف يتقدمون به تقدما عظيما جديرا بالاعجاب . أما عن نسبته الى المسلمين مؤسسى مجريط وخالقيها فأمر لا يمكن أن يكون فيه أدنى شك ، وأن كان بعض من عرفوه من مؤرخى مدريد قد حاولوا نسبته الى الاغريق أو الرومان غير أن ذلك لا تشهد به السوابق التاريخية ، فالاغريق والرومان لم يكن لهم أبدا تفوق ولا خبرة بهذا النظام ، صحيح أن الرومان برعوا فى بناء مجارى ضخمة رفعوها على قواعد هائلة من الصخر ولكن مجاريهم كانت من النوع الظاهر على سطح الأرض ، وأروع مثل لهذه المجارى هى التى نرى آثارها حتى الآن فى مدينة قريبة من مدريد فيما وراء جبال وادى الرمل هى شقوبية Segovia ، غير أن الرومان لم يكن لهم قط تمرس بأمثال تلك القنوات الجوفية المحفورة فى باطن الأرض مما يسهل معه القطع بأن تلك التى نراها فى مدريد تدين بفضل انشائها الى العرب كما تدين لهم المدينة نفسها بوجودها .



يمثل هذا الرسم الطريقة التى ابتكرها العرب لاستنباط المياه الجوفية من باطن أرض مجريط ، وهى التى طبقوها من قبل فى كثير من المدن الشرقية ، وتقوم على أساس حفر مجموعة من الآبار فى المناطق الغنية بالمياه الجوفية ، ثم التوصيل بين فيعان هذه الآبار بقنوات تجرى تحت سطح الأرض وتتألف منها شبكة كبيرة معقدة توزع المياه على أحياء المدينة وما حولها بتقدير نظم معلوم ، ويرى فى الشكل الأول قطاع طولى لهيئة هذه الآبار ، وفى الثانى قطاع أفقى لاثنين منها ، وفى الشكل الثالث قطاع طولى آخر أكثر تفصيلا من الأول .

وأنا أدين بهذه الصور وبالخريطتين التاليتين لكتاب صديقى الكريم الأستاذ خايمه أوليفر أسين : تاريخ اسم مدريد (اللوحتان ٥ ، ٣١)

وقد كان مؤرخ مدريد خايمه أوليفر أسين الذى أشرنا اليه مرات عديدة فى ثنايا هذا البحث هو الذى أولى هذه المجارى الجوفية اهتماما خاصا ودرسها دراسة علمية فاحصة ، ورجع فيها الى كتب قدم بها العهد ترجع الى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ثم جاب هذه المجارى وطالعها على الطبيعة برفقة بعض المهندسين المتخصصين وعمال المجارى الذين توارثوا هذه المهنة أبا عن جد ، ثم أمدنا بعد ذلك عنها ببيان مسهب مستفيض .

وتطلعنا الأبحاث التى أجراها الأستاذ أوليفر أسين على حقيقة طبيعة الأرض فى مدريد ، فهذه الهضبة المنبسطة التى تقوم عليها المدينة تتألف من طبقتين أرضيتين : الأولى والعليا ارض رملية تتشرب الماء تليها من أسفل طبقة أخرى من طين أحمر يضرب الى الصفرة مصمت لايمتص الماء ، ومن تحت هذه الطبقة توجد مياه غزيرة عذبة .

ولابدأن العرب بمقتضى خبرتهم فىاستخراج هذهالمياه الباطنة عن طريق المجارى الجوفية قد بدأوا بهذه الأبحاث « الجيولوجية » فى أرض مجريط ، واكتشفوا هذه الثروة المائية الهائلة التى تحتفظ به المدينة فى باطن الأرض ، وهكذا طبقوا فيهـا ما كانوا يعرفونه من تلك النظم التى نقلوها من الشرق الاسلامى .

وتتجلى مقدرة المهندسين المسلمين فى التمكن من حساب العمق الذى توجد عليه تلك المياه الجوفية ثم حفر آبار تصل اليه والتوصيل بعد ذلك بين هذه الآبار بقنوات يراعى فيهـا أن تحفر فى الطبقة الأرضية التى لا تمتص الماء وأن تكون منحدرة انحدارا خفيفا يسمح باجراء الماء بغير توقف ، وقد كانت هذه القنوات تصنع من فخار مدريد نفسها ، وهو فخار ممتاز نوه الجغرافيون العرب أنفسهم بأنه

من أجود ما يعرف من الأنواع ، اذ هو مصمت لا يتشرب السوائل قوى متماسك لامع يشبه الخزف (١) .

ويكون حفر تلك الآبار في مواضع مرتفعة عن مستوى المدينة وفي ضواحيها الخارجة عنها ، أما القنوات الجوفية فتتجه مقتربة من المدينة ، وهي تتألف أولا من قنـــاة ضخمة تعتبر هي « الأم » ومنها تتفرع في داخل المدينة شبكة معقدة من قنوات صغار فرعية • وفي كل «عقدة» يتجمع عندها عدد من تلك الفروع يقام خزان أو مستودع يجتهد في حمايته ووقايته بالطوب والفخار ، وهذه الخزانات هي التي يتحكم منها المهندسون والخبراء في توزيع المـــاء توزيعا عادلا بين الأحياء والمنازل والحدائق العامة والخاصة ، وتبنى عليها صهاريج مقفلة بأبواب وقضبان من الحديد ولا يسمح بدخولها الا « للقنواتى » الذى يوكل اليه الصهريج ويكون مسئولا عنه ، ويحتفظ بمفتاحه وهناك صهاريج عامة في الشوارع لسقيا الناس والبيوت ، وتكون أحيانا على ظهر الأرض وأحيانا أخرى في باطن الأرض ، اذا كانت القناة التي تمده على عمق شديد ، وحينئذ لا يوصل اليها الا بسلالم تصل في بعض الأحيان إلى نحو ستين درجة •

ويلاحظ أن الآبار الأولى التي حفرت لكى تمتد منها هذه الشبكة من المجارى الجوفية تقع الى شرق مدريد وشمالها : مسايرة للطريقين اللذين يربطان مدريد بضاحيتى فوينكارال Fuencarral وتشامارتين

---

(١) ورد في مخطوطة عنوانهـــا « ذكر بلاد الأندلس وفضـــلها وصفتها وذكر أصقاعها » محفوظة بالخزانة العامة بالرباط ما يلي في وصف مجريط : « وبها تربه عظيمة تصنع منها القـــدور وتستعمل للطبخ عشرين سنة وما تتغير أصلا ، تعصم الاطعمة من التغير في أيام الصيف » • (ورقة ٦٩ ــ ٧٠ ويقوم الدكتور حســـين مؤنس الآن بدراسة هذه المخطوطة واعدادها للنشر) • هذا وقـــد أشار الى تربة مجريط المذكورة أيضا ابن عبد المنعم الحميرى في الروض المعطار « ص ١٨٠ »

Chamartin (١) الى الشمال وبقلعة عبد السلام العربية التى تسمى الآن Alcala de Henares على وادى شرنية . وهذه المواضع كانت تبعد عن وسط المدينة عند تأسيسها على أيدى المسلمين بما يتراوح بين سبعة واثنى عشر من الكيلومترات . أما الفرق بين سطح الأرض عند الآبار الأولى التى تولد فيها القنوات الجوفية وسطحها فى وسط المدينة فيتراوح بين ثمانين ومائة متر تقطعها القنوات فى انحدار متدرج يسمح بانصباب الماء .

وليس من السهل تقدير عدد القنوات التى توجد فى باطن أرض مدريد الآن ، فكثير منها بنى فى عصور مختلفة ولخدمة مختلف المبانى : الملكية والأديرة والبيوت الخاصة . وقد استخدم بعضها فى العصور الحديثة لصرف مياه المجارى أو للأسلاك الكهربائية ولغير ذلك من المنافع .

ويدل تأمل هذه القنوات على أن أقدمها من الناحية التاريخية هى تلك التى تخترق مدريد القديمة ، بل على وجه التحديد الجزء الذى نعرف يقينا أنه كانت تقوم عليه مجريط العربية ، مما يزيدنا تأكدا من ان العرب كانوا هم مبتكرى ذلك النظام الهندسى المائى .

صحيح أن المؤرخين والجغرافيين المسلمين لم يحدثونا عن هذا النظام فى أثناء كلامهم عن مجريط ، ولكن ذلك ليس غريبا إذا

---

(٢) هذه الضاحية هى المشهورة اليوم بملعب كرة القدم الضخم (سعة ١٢٠,٠٠٠ متفرج) الذى يملكه نادى « ريال مدريد » ومن الطريف أن نذكر أنه كانت فى موضعه حديقة كبيرة تحمل اسم Mahudes ، وهو اسم دلت دراسته اللغوية على أنه تحريف لاسم « محمود » الذى كان شائعا فى الاندلس بين البربر والمستعربين . ولاشك فى أن هذه الحديقة كانت ضيعة أو اقطاعا لرجل يحمل هذا الاسم قد يكون أحد ساكنى مجريط العربية من المسلمين .

قدرنا أن ما احتفظت به لنا المراجع العربية عن تلك المدينة لم يكن يتجاوز بضعة سطور . على أننا نجد أخبارا عن هـــذه القنوات الجوفية في مدريد ابتداء من سنة ١٢٠٢ أى بعـــد سقوطها فى أيدى النصارى بنحو قرن من الزمان ، فنحن نجـــد فى القانون البلدى الذى أصدرته سلطات مدريد فى هذه الســنة نصا على تحريم القاء الأقذار فى تلك القنوات : « والذى يقوم بغسل أمعاء الحيوانات المذبوحة فى قناة سان بدرو (الواقعة فى مدريد القديمة) معرض لأن توقع عليه غرامة تبلغ ثمن دينار مرابطى»(١) ، وذلك لأن هذه القنوات لم تكن مجارى لتصريف المياه ، بل هى عماد أهل مدريد فى الشرب والسقيا ، ولهذا فقد كانت السلطات تهتم بالمحافظة على نظافتها وسلامتها .

وقد زادت العناية بتلك القنوات خلال القرن السادس عشر ولاسيما فى السنوات التى كان يتولى عرش اسبانيا أثناءها فيليب الثانى (بين سنتى ١٥٥٨ و ١٥٩٠) ، ولا سيما بعد أن أصبحت هى عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦١ ، اذ لم تكن مثل هذه الخطوة لتتخذ الا اذا كانت موارد المياه مضمونة ميسرة .

وقد حاول فيليب الثالث الذى حكم بين سنتى ١٥٩٨ و ١٦٢١ أن ينقل عاصمة اسبانيا الى (بلد الوليد) ، ولعل ذلك كان بتأثير مستشاريه الذين أقنعوه بأن بلد الوليد Valladolid أحق بهذه المكانة اذ أنها تقع على نهر كبير يسهل الاستقاء منه ، وبالفعل

---

(١) من الطريف أن نسجل بهذه المناسبة أن العملة الاســلامية التى كانت متداولة فى الأندلس فى عهد المرابطين كانت هى التى تتخذ أساسا للمعاملات فى اسبانيا المسيحية ، ومن هنا نرى استخدام لفظ الدينـار المرابطى (بالاسبانية Morabetino او Maravedi) فى الوثائق النصرانية . وهذا دليل آخر على مدى عمق النفوذ الاسلامى فى أوضاع اسبانيا . اذ ظل استعمال اصلاح « الدينــار المرابطى .» بعد أن انقرضت دولة المرابطين فى الاندلس بوقت طويل وبعــد أن اشتدت شوكة الملكة المسيحية فى أسبانيا الى حد كبير .

تبوأت هذه المدينة القشتالية ذلك المركز فى سنة ١٦٠١ ، ولكن الدعاة الى أن تكون مدريد هى العاصمة انتصروا أخيرا ، فعدل الملك عن رأيه فى سنة ١٦١٧ وعادت قاعدة الملك الى مدريد ولم تنتقل منها حتى اليوم .

وفى خلال القرن السابع عشر زاد عمران مدريد بفضل الاستكثار من تلك القنوات الجوفية وتوسيع شبكتها مما ترتب عليه ايصال الماء الى مختلف ضواحيها وأطرافها ، وان كان تزايد السكان فى العاصمة الجديدة والاكثار من البناء فيها بلغ من السرعة بحيث لم تستطع القنوات الجديدة المحفورة أن تلاحق الحركة العمرانية ، وحينئذ بدأنا نسمع عن أزمة الماء فى مدريد ؛ وعن شكوى الشعراء والأدباء من قلة الماء فيها . غير أن هذه الأزمة كانت عارضة اذ تمكن الخبراء والمهندسون المدريديون الذين كانوا يتوارثون تلك المهنة أباً عن جد أن يتداركوا الأزمة وأن يمدوا مزيدا من القنوات الجديدة فى باطن أرض العاصمة .

وهكذا استمر الأمر حتى القرن التاسع عشر ، وظلت عاصمة اسبانيا تعتمد فى ماء شربها وفى حدائقها والسهول المزروعة فى ضواحيها على ذلك الماء الجوفى . ولكن العمران ظل يتزايد على صورة لم يعد معه من الممكن أن تفى تلك الشبكة المائية بحاجات أهل العاصمة . وهنا تعين على سلطات المدينة أن تبحث عن حل جديد ، واقترح البعض أن تشق قناة من نهر شرنية القريب الى مدريد ، ووصل الأمر الى حد التفكير فى نقل العاصمة الى بلد آخر . ولكن الحل أتى أخيرا على أيدى مهندسين قديرين هما : رافو Rafo وريبيرا Ribera اللذان استطاعا أن يبتكرا نظاما جديدا للاتيان بمياه الأمطار الغزيرة من جبال وادى الرمل التى

مدريد عبر القنـــاة التى تحمل اليوم اسم « ايزابيل الثانيـــة Canal de Isabel II » ، وتم تنفيذ ذلك المشروع تحت اشراف برافو موريليو Bravo Murillo فى سنة ١٨٤٥ .

وهكذا تنتهى قصة هذه المجارى الجوفية التى دانت لهـــا مدريد بحياتها منذ ابتكرها العرب عند انشاء المدينة حتى منتصف القرن الماضى ، والى هذه المجارى يرد الفضل فى كون مدريد قد أصبحت عاصمة اسبانيا كلها خلال القرون الأربعة الماضية ... من سنة ١٥٦١ الى اليوم .

"مجريط" اسم عربي ونهاية أسبانية

رأينا في الصفحات السابقة كيف كانت مدريد مدينة عربية وكيف كان سر وجودها وعمرانها ووصولها الى المكانة التى تحتلها اليوم باعتبارها عاصمة أسبانيا وواحدة من أجمل المدن الأوروبية الكبرى وأعظمها ـ راجعا الى ذلك النظام الذى كان العرب أول من أدخلوه الى الأندلس .

فهل يغنى ذلك شيئا بالنسبة الى تلك المسألة التى طال فيها خلاف الباحثين : مسألة أصل اسم مدريد ؟

ربما لم يعد الاهتداء الى حل المسألة عسيرا بعد ما أسلفناه من حديث . فالاسم الذى أطلقه العرب على عاصمة أسبانيا المستقبلة فيه خلاصة تاريخ المدينة ، واشارة الى أهم الخصائص التى ميزتها عن غيرها من المدن والتى كانت للمدينة بمثابة الروح للجسد .

وقد كان منشئو مدريد أو مجريط من العرب ومن ساكنهم من الأسبان المستعربين عميقى الشعور بهذه الحقيقة ، ولهذا فقد أرادوا أن يسجلوها فى ذلك الاسم الذى منحوه للمدينة : مجريط .

فهذه الكلمة تتألف من لفظ عربى خالص « مجرى » أضيف اليه مقطع نهائى من اللاتينية الدارجة (ـيط) ، الذى يدل على التكثير كما سبق أن فصلنا ، فمعنى الكلمة اذن « المدينة التى تكثر فيها المجارى » ، والاشارة هنا الى المجارى أو القنوات الجوفية التى كانت تحمل الماء الى سكان المدينة وبيوتها وحدائقها وزروعها وحماماتها .

ونحن نرى فى هذا اللفظ نفسه صورة لحياة الأندلس التى امتزجت فيها العناصر العربية الاسبانية امتزاجا وثيقا لا انفصام فيه . وكون العرب يستخدمون فى كلامهم عناصر مأخوذة من اللاتينية الاسبانية أمر شائع مؤكد ، فقد كانوا يتكلمون لغة هى صورة صادقة لذلك المجتمع الأندلسى المولد .

وما أكثر ما نجد فى النصوص الأندلسية كلمات لاتينية دارجة مما كان المؤلفون العرب يدعونه « لطينية الأندلس » ، أو كلمات عربية أدخلت عليها نهايات اسبانية مثل كلمة « سمراء » العربية التى يلحقون بها النهاية الدالة على التصغير ، وهى ella ، فتصبح الكلمة samarella أى « سميراء » هو لفظ نجده وأمثاله يتردد كثيرا فى الموشحات والأزجال الأندلسية ، أو لفظ « فرن » العربى يلحقون به النهاية ero الدالة على المشتغل بالمهنة فيتألف من هذين العنصرين Fornero أى الفران ، وهكذا .

ومن مظاهر ذلك ثلاث كلمات ألحقت بها النهاية الدالة على التصغير واستخدمت بصدد هذا النظام المائى الذى ابتدعه العرب فى مجريط مما يستحق منا وقفة متأملة :

أما الأولى فهى كلمة « القنطرة » العربية التى أصبحت فى الاسبانية بعد اضافة نهاية التصغير Alcantarilla ، وكانت

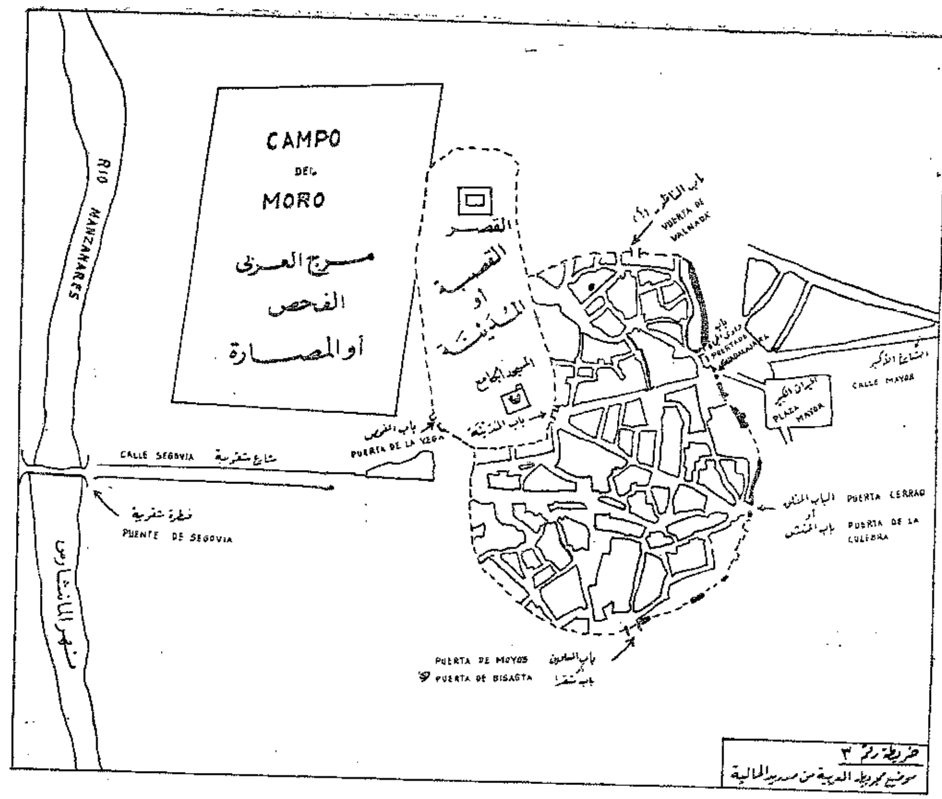
يدل على المجرى الجوفى الذى ينقل الماء فى باطن الأرض ، وقد شاع استخدام هذا اللفظ فى أسـبانيا كلها ، وأصبح الآن يطلق على المجارى التى تصرف المياه الزائدة على حاجات السكان .

والكلمة الثانية هى « القنـاة » التى أصبحت فى الانسـانية مصغرة بصورة Canilla واستخدمت فى نفس المعنى السـابق ، وهى ما زالت تطلق فى مدريد بصفة خاصة باعتبارها علما جغرافيا على مكان يقع فى الشمال الشرقى للعاصمة الاسبانية ، أى فى نفس البقعة التى تدل الأبحاث على أنها كانت غنية بالمياه الجوفية والتى امتدت منها مجموعة من القنوات الأولى لتغذى باقى أحياء المدينة بالمياه .

والثالثة هى « القبة » تحولت بعد اضافة نهـاية التصغير الى Alcubilla (أى القبيبة) ، وكان لفظ القبة يطلق على مستودع الماء ، وربما كان أصل اطلاق هـذا اللفظ هو أنه كانت تبنى على هـذه المستودعات مبان تتوجها قباب لتحمى مخارج المـاء منها . وما زال لفظ Alcubilla المذكور مستخدما باعتباره علما جغرافيا يطلق على منطقة من المعروف أنهـا كانت بالفعل مستودعا شقت منه قنوات جوفية عديدة .

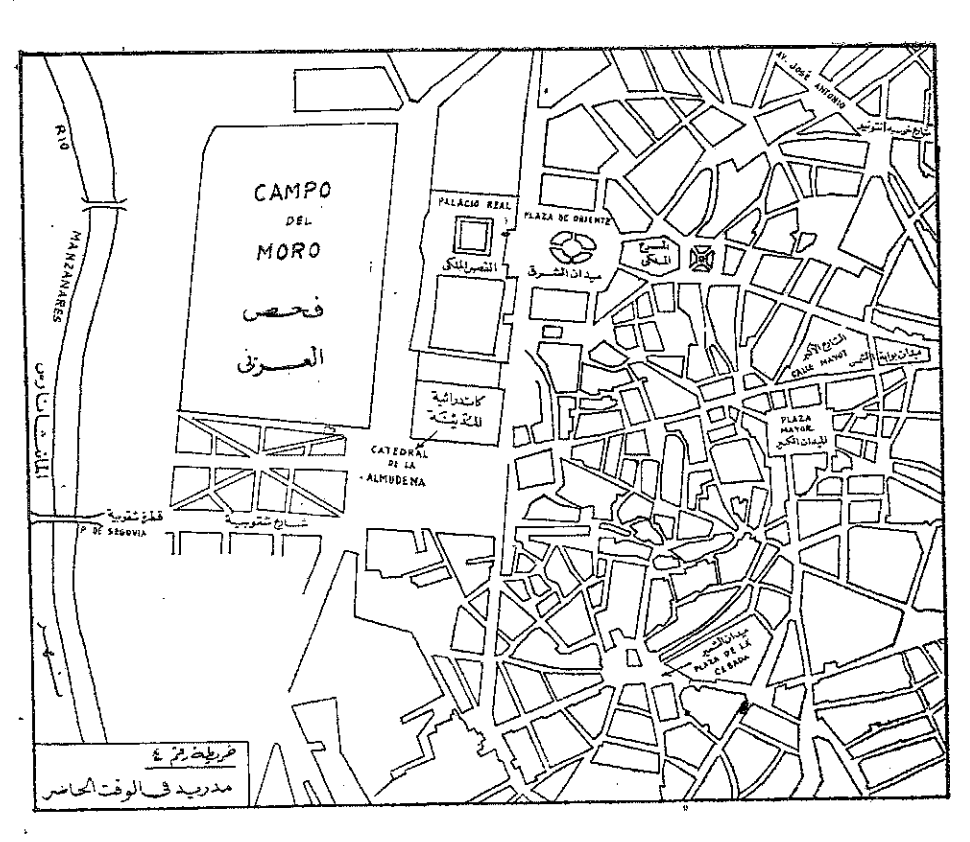
ونحن نرى بعد ذلك أنه لم يكن من الغريب أن يطلق الأندلسيون على مدينتهم الجديدة لفظا مثل « مجريط » هو مركب من « مجرى » العربية ومن تلك النهاية اللاتينية الدارجة التى رأينا أمثالها من قبل فى ألفاظ أندلسية أخرى دالة على التعدد والكثرة .

ولا يكاد يخالجنا شك فى أن هذا هو التفسير الوحيد لاشتقاق لفظ « مجريط » ، لاسيما وأنه هو الذى يتضمن تاريخ المدينة نفسها وسر وجودها .



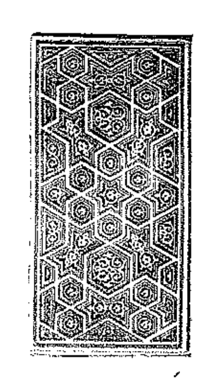
خريطة رقم ٣
موضع مجريط العربية من مدريد الحالية

مجريط العربية وموقعها من مدريد الحالية (يمكن تبين ذلك من المقابلة بين هذه الخريطة والتالية لها) • وقد وضعت هذه الخريطة التقريبية على أســـــاس تلك التى رســـمها أنتـــونيو اسبينوسا دى لوس مونتيروس **Antonio Espinosa de los Monteros** فى سنة ١٧٦٩ • ويلاحظ أن مجريط العربية كانت تتألف من جزئين : القصبة أو المدينة (بالتصغير) وهى المنطقة الحصينية التى كانت مقر عامل المدينة والحامية العسكرية ، وفى شمالها قصر العامل الذى يقوم عليه الآن قصر الشرق أو القصر الملكى ، ثم المدينة نفسها وكانت تحيط بها أسوار ما زالت بقية منهـــا فى المواضع التى ميزت بخطوط سوداء ثقيلة • أما الخطوط المقطعة فهى التى تبين حدود مجريط على وجه التقريب •



مدريد الحالية ، ويلاحظ أن المدينة قد اتسعت وانبسطت حول المركز الذى كانت تقوم فيه مجريط العربية •

معالم "مدريد" العربية



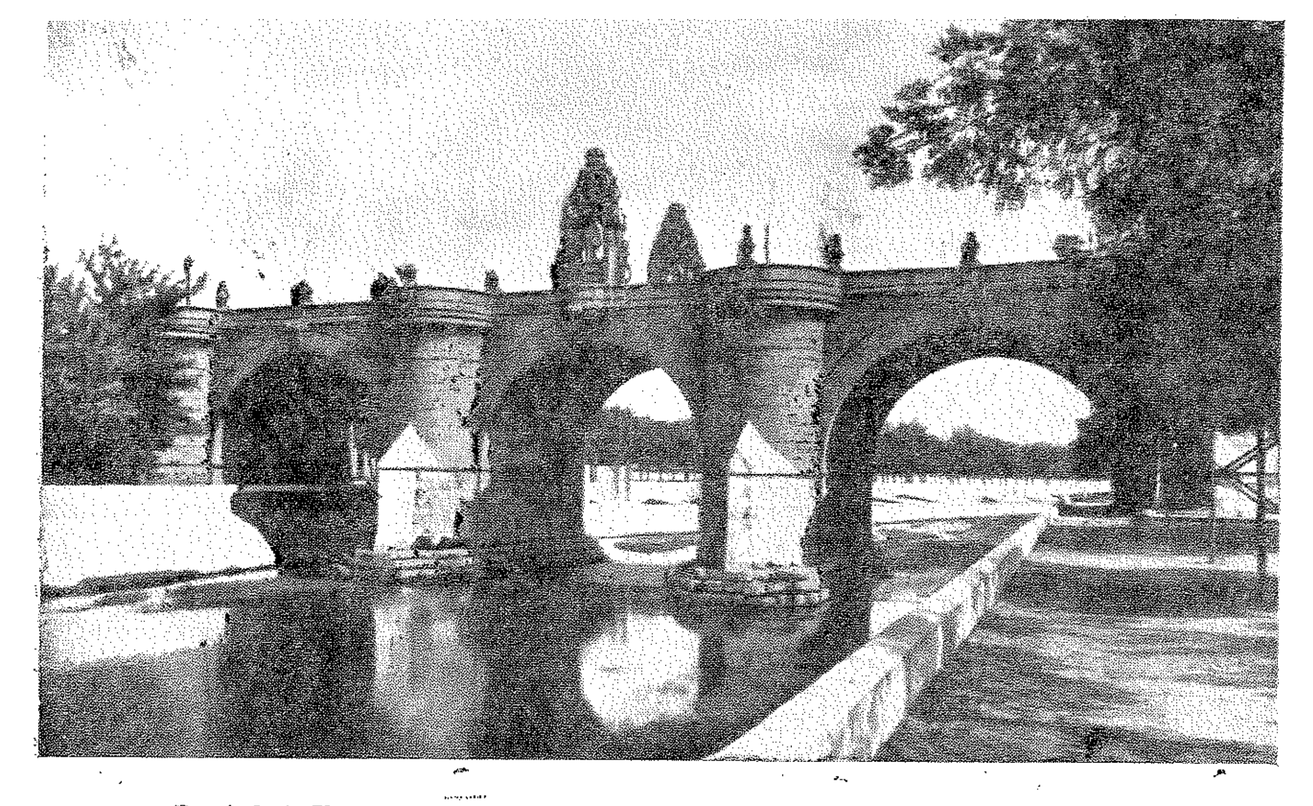
وبعد .. فهل بقى شيء من معالم مدريد هذه التى تدين بفضل بنائها للعرب ؟

لعل السائر الآن فى شوارع العاصمة الاسبانية والمطالع لمتاجرها الكبيرة وأبنيتها الحديثة بل ونواطح سحابها الشاهقة لايسعه الا التشكك فى هذه الحقيقة ·

والواقع أن مدريد قد لحقها ما يلحق العواصم الكبرى من تجديد مستمر وتغيير متواصل تدفع اليه الحاجة اليومية الى التزيين والتجميل وتزايد العمران مما لا غنى عنه فى أمثالها من المدن الكبرى · ولهذا فانه لا ينتظر أن نجد فى مدريد ما نجده مثلا فى تلك المدن الأندلسية التى يكاد عطر الحضارة العربية فيها يفغم الأنوف منذ أن تطأها قدم الزائر كما نرى فى قرطبة أو اشبيلية أو غرناطة ·

ومع ذلك فان الذى يتأمل هذه المدينة تأمل الباحث المدقق لا كما يفعل السائح العابر فانه لا يلبث أن يجد فى معالمها تلك المسحة الخاصة التى تميز المدن الاسلامية الأندلسية ·

وأول ما نشير اليه من معالم « مجريط » العربية القديمة هو قصرها الملكى الكبير الذى يسمى اليوم « قصر الشرق Palacio de Oriente » ، فهو كما يشهد بذلك كل مؤرخى مدريد قائم فى عين



١ ـ قنطرة طليطلة **Puente de Toledo** على نهر المانثانارس ، وهى التى يطل عليها باب الفحص **Puerta de la Vega** من أبواب قصبة مجريط العربية أو « المدينة » (بالتصغير) كما كانت تدعى . ويفصل بينهما ما يعرف اليوم باسم « مرج العربى **Campo del Moro** » وهو الذى كان يدعى فى أيام العرب باسم الفحص أو المصارة أى المنتزه الخارج عن أسوار المدينة . ويلاحظ فى الصورة جفاف نهر المانثانارس وقلة مائه مما حمل العرب على استنباط المياه من جوف أرض مجريط .



٢ ـ ميدان بوابة الشمس **Puerta del Sol** الذى يعتبر اليوم مركز مدينة مدريد . ويخرج من الميدان كما يرى فى الصورة « الشارع الأكبر **Calle Mayor**» الذى كان يمتد فى مجريط العربية من باب المدينة (بالتصغير) فى جنوب قصبة مجريط حتى ينتهى الى باب وادى الحجارة مخترقا البلد كلـه . وكان أهم شوارع المدينة . ويدعى « السوق الكبير » وهو اسم ظل مستخدما بعد فتح المسيحيين لمجريط فى هذه الصورة **Azoque** (السوق) ، ثم أطلق عليه اسم الشارع الأكبر

المكان الذى أقيم فيه قديما قصر العامل أو الحاكم العربى لمجريط ، ثم ان اســمه الذى ظل مستخدما حتى فترة قريبــة والذى ما زال الكثيرون يطلقونه عليه هو لفظ Alcazar وهو تحريف لكلمة «القصر» العربية . وهذا فى الحقيقة هو الخط الذى يهدنا الى بقية معالم مجريط الاسلامية ، كما تهدينا اليها بقية أسماء عربية أو ذات تاريخ مرتبط بالتاريخ الاســلامى للمدينة ، فهذا القصر يطل من الناحية الغربية على سهل منبسط فسيح يمتد بين القصر ونهر المانثانارس ، ويعتبر اليوم من منازه مدريد ، ويطلق عليه الآن اسم « مرج العربى Campo del Moro » ، وهــذا الاسم الذى نرى فيه تذكارا بماض عربى ليس الا بديلا من اسم آخر عربى خالص نجده منصوصا عليه فى تواريخ مدريد القديمة فقد كان يطلق على هذا المرج اسم « المصارة Almuzara » ، وهــذا الاسم هو الذى كان يستخدم فى الأندلس والمغرب دائما على السهل المنبسط الأخضر الذى يمتد تحت أقدام أسوار المدينة حيث يتجه الناس فى أعيادهم وأوقات فراغهم للنزهة والاسترواح ، وقد كانت هنــاك «مصارات» كثيرة فى المــدن الأندلسية المعروفة مثل قرطبة وسرقسطة ، وكذلك فى المدن المغربية مثل فاس ، فنحن نجد فى وصف المؤرخ المغربى ابن أبى زرع لهذه المدينة ذكرا لجنة المصــارة وفحص المصارات(١) الذى عسكر فيه ملك غرناطة محمد الغنى بالله حينما لجأ الى المغرب لكى يستنجد بالسلطان المرينى بعد خلعه عن عرشه ، والوصف الذى يورده المؤرخون والجغرافيون لهذه المصارات المغربية والأندلسية يكاد ينطبق على ما يذكر أيضــا عن « مصارة » مدريد التى تدعى الآن « مرج العربى » .

وقد كان قصر الحاكم فى المدن الأندلسية خلال عهودها الاسلامية يقع دائما فى المنطقة العسكرية المحصنة التى كانت تسمى «القصبة» (بالاسبانية Alcazaba أو المــدينة Almudaina تصغيرا للفظ

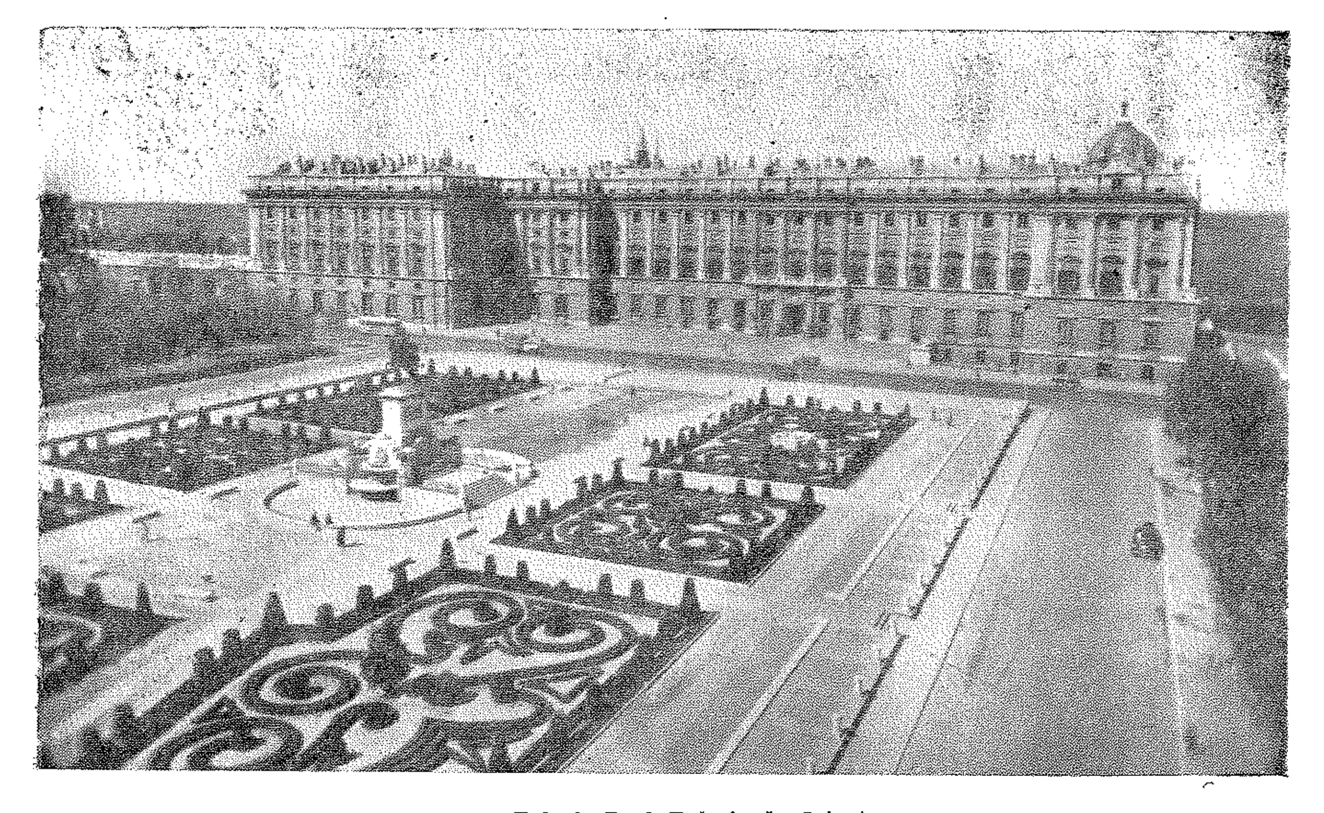
(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ١/٥٤ ، ٥٩

المدينة) ، والاسم الثانى وان كان أقل شيوعاً من الأول فهو كثير في مختلف أنحاء شبه الجزيرة ذات التاريخ العربى ، نجده مثلا يطلق على قصبة مدينة ميورقة Plama de Mallorca حتى اليوم ، كذلك تسمى به بعض قلاع مرسية Murcia ولقنت Alicante

وقد بقى اسم المدينة (بالتصغير) فى مدريد حتى اليوم ، وبه تسمى كنيسة «عذراء المدينة La Virgen de la Almudena التى تقع على مقربة من القصر الملكى والى الجنوب منه ، وانما سميت بذلك كما يقول مؤرخو مدريد القديمة لأنها كانت الكنيسة الوحيدة فى المنطقة المسورة الحصينة المحيطة بقصر الحاكم والتى كان يطلق عليها اسم المدينة ، وقد كان الى جوارها منذ زمن قريب كنيسة أخرى تحمل هذا الاسم أيضا وكانت فيما يقول الأثريون فى نفس الموضع الذى كان مسجد القصبة يقوم فيه على عهد المسلمين وعلى كل حال فان ذكرى الاسم العربى القديم قد بقيت حتى اليوم دالة على الكنيسة المنسوبة لهذه العذراء التى يعتبرها أهل مدريد حامية لمدينتهم .

وقد أمكن اليوم للمتخصصين فى الآثار معرفة موقع قصبة مدريد أو مدينتها على وجه التحديد والأسوار المحيطة بها ، وقد بقى منها حتى اليوم جزء ظاهر بين باب الفحص وباب المدينة الى جنوب القصر الملكى . وسنورد فيما يلى وصفا مختصرا لموقع مجريط العربية وأهم معالمها .

كانت المدينة تتألف من جزئين رئيسيين : القصبة أو المدينة (بالتصغير) وهى أمنع مواقع المدينة وتقع على ربوة مرتفعة تطل على السهل المنبسط الذى يدعى الفحص الممتد بين أسوارها الغربية ونهر المانثانارس ، وفى شمال هذا الجزء يقع قصر العامل أو الحاكم العربى وهو الذى يقوم فى موضعه الآن القصر الملكى كما ذكرنا .



٣ ـ القصر الملكي أو قصر الشرق و **Palacio Real Palacio de Oriente** وهو يطل الآن على الميدان الفسيح المعروف باسم ميدان الشرق ، وكان في موضعه على عهد العرب قصر عامل مجريط أو حاكمها ، وموقعه في شمال القصبة أو المدينة ، على مقربة منه في الجنوب كان يوجد جامع المدينة الذي تحول الى كنيسة • وتطل جدران القصر الغربية على مرج العربي **Campo del Moro** أو الفحص أو المصارة وهو اليوم من متنزهات مدريد •

والى الجنوب الغربى من أسوار القصبة يقع باب الفحص Puerta de la Vega ، وهو باب قريب من قصر الحاكم ، اذ روعى فيه أن يكون منفذا يمكن الحاكم من مبارحة المدينة والهرب منها اذا نشبت ثورة مفاجئة ، ولهذا فانه كان يطلق عليه اسم « باب الخيانة Puerta de la Traicion » ، ونحن نجد مثل هذه الأبواب فى مبانى القلاع الاسلامية في الأندلس الاسلامية واسبانيا المسيحية خلال العصور الوسطى •

ويقابل هذا الباب من الناحية الشرقية باب آخر داخلى فتح فى السور الذى يفصل بين القصبة وبين المدينة ، ولهذا فانه كان يسمى باب المدينة (بالتصغير) ، وكان قريبا من مسجد القصبة الذى أشرنا اليه ويمتد منه بعد ذلك شارع يصل هذا الجزء بما يعرف الآن باسم « الميدان الأكبر Plaza Mayor » فى مدريد القديمة •

أما المدينة فكانت تقع الى الجنوب الشرقى من القصبة ، وكانت تحيط بها أسوار تحميها وكان لهذه الأسوار أربعة أبواب ، باب فى الشمال يعرف باسم Valnadu (ولعله تحريف لكلمتى « باب الناظور » اذ ربما كان فيه برج استطلاعى لاستكشاف أى هجوم قادم من اسبانيا المسيحية التى كانت تمتد فيما وراء جبال وادى الرمل ، فقد كانت هذه الجبهة بالذات هى أول ما يتعرض فى مجريط الاسلامية لهجوم الأعداء) . وكان هذا الباب يقع فى نفس الموضع الذى يقوم فيه اليوم مسرح الأوبرا ، أو المسرح الملكى Teatro Real .

والباب الثانى يقع فى شرق مجريط ، وكان يسمى « باب وادى الحجارة Puerta de Guadalajara » ، اذ كان يخرج منه الطريق الى هذه المدينة • ويقع الآن قريبا من « الميدان الأكبر » الذى أشرنا اليه منذ قليل •

والباب الثالث الى الجنوب الشرقى من أسوار مجريط ، وكان يدعى « البـــاب المغلق Puerta Cerrada » أو « باب الحنش Puerta de la Culebra » (وهو اسم كان شـــائعا فى المـــدن الأندلسية) ، ومنه كان يخرج الطريق المؤدى الى مدينة بلنسية فى شرق الأندلس ، وهـــذا الباب يقع اليوم قريبا فى شـــارع طليطلة Calle de Toledo

وأما الباب الرابع فهو يقع الى الجنـــوب مواجها للميدان الذى يعرف الآن باسم « ميدان الشعير Plaza de la Cebada » وكان يسمى على عهد العرب « باب شقرا Puerta de Xagra » (وهذا الاسم يطلق أيضا حتى اليوم على أحد أبواب مدينة طليطلة باسم Bisagra) ، ثم دعى بعد استيلاء المسيحيين على المدينة « باب المسلمين Puerta de Moros » اشارة الى أنه كان يطل على الحى الذى كان يسكنه المسلمون الموريسكيون المقيمون فى مدريد حتى أوائل القرن السابع عشر ، وكان من هذا الباب يخرج الطريق الموصل الى طليطلة ومدن الأندلس الجنوبية ٠

ويقدر الأستاذ أوليفر أسين مســـاحة القصبة أو المدينة (أى المنطقة العسكرية المحصنة من المدينة حيث كان يقوم قصر الحاكم العربى) بنحو تسعة هكتـــارات (أى ما يقرب من اثنين وعشرين فدانا) ، أما المدينة نفسها (أى المنطقة المدنية) فكانت مساحتها تصل الى ستة وعشرين هكتارا أى قريبا من ستين فدانا .

ويبدو أن المدينة العربية كانت مقسمة الى خمسة أحياء أو ستة لكل منها مسجدها الخاص وأسواقها وحماماتها ، وقد حفظت لنا الوثائق الخاصة بمدريد خبرا عن أحد هذه الحمامات العربية كان الى جوار « الباب المغلق » فى الجنوب الشرقى من مجريط ، وكان قد هجر وأهمل فى القرن الرابع عشر ، حتى تكفلت به سيدة مسلمة تدعوها الوثائق « السيدة شمس Doña Xanci » فى أواخر

القرن الخامس عشر ، فأجرت اليه الماء من القنوات الجوفية وأصلحته وأعدته للاستعمال ، وكان يتردد عليه المسلمون المقيمون فى المدينة والذين كانوا يحتاجون اليه للاغتسال والتطهير قبل أداء الصلوات .

ويقدر العالم الأثرى توريس بلباس Torres Balbas عدد بيوت مجريط بنحو ٢١٦٨ بيتا ، أما عدد سكانها على عهد العرب فهو يقدره بـ ١٢ر٤٠٨ نسمة .

وقد كان من أهم شوارع مجريط الاسلامية ذلك الذى بقى اسمه الحالى مشيرا الى ماضيه العربى . نعنى به الذى يدعى الآن « الشارع الأكبر Calle Mayor » ، ويبدو ان هذا الاسم كان ترجمة للاسم العربى « السوق الكبير »(١) ، وكان يمتد من جنوب القصبة ويخترق الباب المعروف باسم باب المدينة (بالتصغير) ممتدا فى المدينة نفسها ، وكان المسجد الجامع أكبر مساجد مجريط وهو الذى يشير اليه الادريسى وابن عبد المنعم الحميرى يقوم فى هذا الشارع على الأرجح .

---

(١) يدل على الاصل العربى لهذا الشارع انه ذكر فى القانون البلدى الصادر فى مدريد فى أوائل القرن الثالث عشر باسم Azoque وهو تحريف للكلمة العربية « السوق » كما هو واضح .

التجارة والصناعة في مجريط

ونحن نرى أن مجريط قد تحولت في أيام المسلمين لا الى قرية صغيرة قليلة القيمة كما ظن كثير من المؤرخين ، بل كانت مدينة يشهد بخطرها وأهميتها من كتب عنها من الجغرافيين العرب • وربما أطلعتنا الصفحات السابقة على مدى عمرانها وكبرها •

كانت مجريط مدينة لها قيمتها العسكرية والمدنية ، وكانت تحيط بها مزارع واسعة فيحاء اختفت بمضي الزمن وبامتداد عمرانها وكثرة مساكنها • غير أن الوصف الذي يورده المؤرخون المسيحيون للمدينة خلال عصورها الأولى التي تلت انتزاعها من أيدي المسلمين يشهد بأنها كانت كثيرة الخضرة والزروع والثمرات، وكان الفضل في ذلك راجعا الى كثرة مياهها الجوفية التي عرف المسلمون كيف يستنبطونها من باطن الأرض كما رأينا •

كذلك كانت مجريط من أكثر مدن الثغور حياة وحركة ، وكانت كثيرة التجارات والصناعات مما يشهد به تأمل أحيائها القديمة التي نعرف على وجه التأكيد أنها كانت في المنطقة العربية منها • فنحن نرى شوارعها مازالت تحمل حتى الآن أسماء طوائف من أصحاب الحرف المختلفة مثل الدباغين Curtidores والطرازين

والمغربلين Esparteros والحصارين Tintoreros والصباغين Bordadores
والسكاكينيه Cuchilleros، وغير هذه من الأسماء التى Cedaceros تدل على تجمع أصحاب الحرف الواحدة فى شوارع أو أزقة خاصة بهم ، وهذا من خصائص المدن الاسلامية التى نرى أمثال هذه الشوارع شائعة فيها حتى اليوم ، تماما كما نلاحظ فى الأحياء القديمة بالقاهرة مثلا •

وكانت صناعة الفخار من أهم صناعات مجريط ، وقد أشرنا من قبل الى ما نص عليه الجغرافيون العرب من أنه كان فيها « تربة عظيمة تصنع منها القدور وتستعمل للطبخ عشرين سنة وما تتغير أصلا ، تعصم الأطعمة من التغير فى أيام الصيف » ، والطريف أن هناك قرية من القرى التى تتبع مدريد اليوم تدعى Alcorcon (١) (وهو اسم لا مجال للشك فى أصله العربى ، وهو مأخوذ من لفظ « القرق » أى شجر الفلين) مازالت حتى اليوم مشهورة بقدورها الفخارية التى ينطبق عليها ذلك الوصف الذى نص عليه الكتاب العرب •

ولنذكر بهذه المناسبة أن مدريد تدين بوجودها الى تلك القنوات التى كانت تحمل المياه الجوفية الى أحيائها ومنازلها عبر شبكة واسعة هائلة • وقد دلت الأبحاث المجراة على ما بقى منها حتى اليوم على أن أنابيب المياه كانت تصنع من ذلك الفخار الذى تميزت به تربة مجريط والذى أغدق الجغرافيون عبارات الثناء عليه والتمدح بجودته • وقد أشار مهندسو القنوات الجوفية فى مدريد خلال القرن الثامن عشر الى تميز هذه الأنابيب الفخارية بأنها لا يصيبها الفساد ولا يلحقها الطحلب الذى يمكن أن يغير طعم الماء أو يشوب نقاءه •

---

(١) تبعد هذه القرية من مدريد بنحو عشرة كيلو مترات•

كذلك كان من صناعات مجريط المشهورة صناعة الحصر والحبال والأسفاط وغير ذلك مما هو مشتق من نبات الحلفاء ، ولنذكر أن الاسم الاسبانى لهذا النبات مازال يدل على أصله العربى الذى حرف عنه ، اذ هو Alfalfa ، ولنذكر كذلك أن من بين القلاع التى أنشئت فى عهد الأمير محمد فى نفس الوقت الذى أنشئت فيه مجريط قلعة قريبة منها كانت تدعى قلعة الحلفاء (التى دعيت بالأسبانية Calatalifa مما يشير الى غنى المنطقة التى تقع فيها مدريد بهذا النبات • كذلك كان يطلق على المادة الأولية المذكورة لفظ آخر هو «الطوج» ، وكان المشتغلون بالصناعات المشتقة منه يدعون « الطواجين » (بتشديد الواو) ، وهو لفظ مرادف « للحصارين » أى المشتغلين بصناعة الحصر •

وقد بقى فى مدريد حتى اليوم لفظان يدلان على هذه الصناعة أحدهما هو Esparteros (أى الحصارين) الذى يطلق على أحد شوارع مدريد القديمة والذى كان يجمع أصحاب هذه المهنة الموروثة عن العرب ، أما الآخر فهو اسم Atocha المحرف عن كلمة «الطوج» الأندلسية ، ومازال يطلق على الميدان الكبير الذى تقوم فيها محطة السكك الحديدية التى توصل مدريد بجنوب أسبانيا Estacion de Atocha ، وما أكثر ما يمر أهل مدريد أو زائروها من الأجانب بهذا الميدان فى جيئتهم وذهابهم دون أن يفطنوا الى أن هذا الاسم موروث عن تلك الأيام التى كان العرب يبسطون فيها سلطانهم على عاصمة اسبانيا •

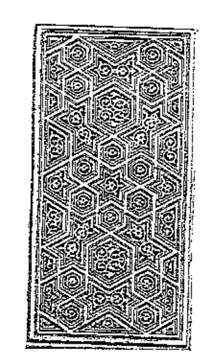
وكانت الصناعات المعدنية فى مجريط مزدهرة ازدهارها فى الوقت الحاضر فى طليطلة Toledo المجاورة ، واذا ذكرنا أن مجريط كانت فى بدء نشأتها قلعة عسكرية حصينة وثغرا يرابط فيه المجاهدون المسلمون طورا للدفاع عما وراء ظهرانيهم من حدود الدولة الاسلامية أو لمهاجمة المدن المسيحية الواقعة فيما وراء جبال وادى

الرمل طورا آخر ـ فانه من السهل علينا أن نتصور مدى خطر صناعة السلاح فى مجريط العربية • وقد استمرت هذه الصناعة على جانب كبير من الأهمية بعد احتلال النصـــارى للمدينة ، فنحن نرى فى الوثائق التى تتحدث عن مدريد فى القرن الرابع عشر الميلادى اشارات متعددة الى ما كان يصنع فى المدينة من سيوف ورماح ودرق (وهى كلمة بقيت فى الاسبانية صورتها العربيـــة اذ هى adarga وتروس وخناجر ، وربما كان الشارع الذى يتفرع اليوم من «الميدان الأكبر» والذى يطلق عليه اسم «قوس السكاكينية Arco de Cuchilleros » هو الشارع الذى كان يؤوى تجار السلاح •

ولم تقتصر مجـــريط على الصناعات المتعلقة بالأسلحة ، بل كانت مهدا لعدد آخر من الصناعات المعدنية مثل القضبان الحـديدية التى تغطى نوافذ البيوت وشرفاتها ، وقد كان من أشهر الحـدادين والخراطين الذين كانوا أساتذة هذه الصنعة فى مدريد المسيحيةخلال القرن الخامس عشر اثنان من المسلمين حفظت لنا الوثائق اسميهما وهما حامد دى كوباس Hamad de Cubas وحامد دى جرينيون Hamad de Grinon ونحن نرى فى هذين الاسمين مظهـــرا لذلك التزاوج والاختلاط بين الأسماء العربية والاسبانية •

ويطول بنا الأمر لو تتبعنا سائر صناعات مدريد التى ورثهـــا النصــــارى عن المسلمين المجريطيين والتى بقيت آثارها فى مختلف الشوارع الضيقة التى تحفل بها مدريد القديمة ومازال كثير منهـــا يحمل أسماء أصحاب المهن المختلفة مثل الصـــــفارين والنحاسين والدباغين والقراقين (الذين يصنعون الأقراق وهى الأحذيةالفلينية) والخرازين (صـــناع الأحذية) والحـــلاجين والجزازين والقـــزازين والصباغين والجباحين (جامعى العسل من المناحـــــل) والشماعين والفرانين والعطارين ••• الى آخره •

ونسجل فى النهاية أن أسواق مدريد المسيحية ظلت فترة طويلة بعد فتح النصارى لها تسير فى رسومها وأوضاعهـــا على ما جرت العادة به فى مجريط العربية ، فقد كان يشرف على الأســـواق ويتفقدها حسبما جاء فى القانون الذى أصدرته بلدية العاصمة فى القرن الثالث عشر موظف يدعونه بالاسبانيـــة Aimutaceb وهو لفظ يمكن أن نستشف بسهولة من ورائه لفظ «المحتسب» العربى، وهو الذى اعتدنا أن نراه فى المدن الاسلامية الأندلسية مكلفـــا بالاشراف على السوق ومراقبة الأســـعار وتوقيع العقوبات على المدلسين والغاشين ورافعى الأسعار بغير وجه حق ، ومازالت وظيفة «المحتسب» قائمة فى بلاد المغرب العربى على نفس الرسوم التقليدية المعروفة فى العصور الوسطى .



تاريخ "مجريط" العربية

لم تحفظ لنا المراجع الأندلسية كثيرا من أخبار مجريط ، وكل ما نجده سطور متناثرة هنا وهناك لا تمدنا بالكثير وان كنا تستخلص منها معلومات تلقى أضواء كثيرة على تاريخ المدينة الاسلامى ، وتؤكد ما ذكرناه من تزايدمكانة هذا الثغر وعلو شأنه حتى انه لم يلبث أن أصبح بعد أقل من خمسة قرون على فتح المسيحيين لها عاصمة لاسبانيا كلها .

وأول ما نعرفه عن تاريخ مجريط العربية هو ذلك النص الذى سبق أن نقلناه عن أمير مؤرخى الأندلس ابن حيان القرطبى حول انشاء المدينة ، وهو نص يدلنا على مدى الاهتمام الذى كان يوليه الأمير محمد بن عبد الرحمن خامس أمراء بنى أمية فى الأندلس لهذا الثغر الجديد ولكل المنطقة المحيطة به من طليطلة الى مدينة سالم .

ولم يحدد لنا ابن حيان تاريخ انشاء مجريط فى عهد الأمير محمد، وهو عهد ليس بالقصير ، اذ هو يمتد بين سنتى ٢٣٨ و ٢٧٣ هـ . (٨٥٢ ـ ٨٨٦) ، ولكن هناك خبرا آخر حفظه لنا ابن حيان أيضا فى كتابه المخطوط الذى نقلنا عنه النص الأول ـ وسوف نعرض له بعد قليل ـ نستخلص منه أن بناء مجريط كان ينبغى أن يتم قبل سنة ٢٥٧ (٨٧١) ، على أننا نلاحظ أن قوة أسبانيا المسيحية لم تمثل

خطرا حقيقيا على الثغور الاسلامية الممتدة بين طليطلة ومدينة سالم الا منذ أن ولى عرش جليقيـــة وأشتوريش الملك ألفنش بن أردون المعروف باسم الفونسو الثـالث العظيم Alfonso III el Magno في سنة ٢٥٢ (٨٦٦) ، وهذا هو ما يحملنا على الاعتقاد أن انشاء مجريط كان في حدود هذه السنة أو قبلها بقليل .

ويوافينا ابن حيان بعد ذلك في أخبار سنة ٢٥٧ (٨٧١) بجديد لا نراه الا في كتابه(١) ، اذ يقول متحدثا عن أهل طليطلة :

« وفيها أيضا غدر أهل طليطلة ، وفارقوا الطاعة ، واختلفت أهواؤهم .....(٢) داخل مدينتهم ، يتنافسون في الرياسة ،فيقتل بعضهم بعضا كل حين ، ولا يبعد الى غيرهم ، وفي حالهم هذه قتلوا أميرهم محمد المعروف بابن بلوشي وهو منهم ، وقد كانوا ســـألوا السلطان استعماله عليهم ، فدبرهم حينا ، ثم وثبوا عليه فقتلوه ، ونفوا مسونة نده الى مجريط ، فقتله بها عبيد الله بن سالم ،وأرسل برأسه الى الأمير محمد بقرطبة » .

ونحن نستخلص من هذا النص القصير عدة حقائق لها قيمتها في تسجيل بعض الأخبار الجديدة عن مجريط الاسلامية ، أولها أننا نرى هنا اسم عامل مجريط للأمير محمد ، ويبدو لنا أنه أول عامل للمدينة الحديثة العهد بالانشاء ويستحق اسم هذا العامل وقفــة متأملة . فنحن نرى نسبه ينتهي الى سالم ، والذى نعرفه مما ذكره ابن حزم الأندلسي في كتابه « جمهرة أنساب العرب »(٣) أن هنـاك

(١) جاء هذا النص في القطعة المخطوطة من كتاب « المقتبس » والمحفوظة في مكتبة جامعة القرويين بفاس ، ورقة ٢٦٩ ب . وقد قمنا بتحقيق هذه القطعـة وهي الآن تحت الطبع في بيروت .

(٢) قطع في الاصل بقدر عدة سطور .

(٣) الجمهرة ، نشر ليفي بروفنسال ص ٤٦٦

عائلة كبيرة تدعى بنى سالم كانت قد استقرت منذ الفتح الاسلامى فى منطقة الثغر الأدنى بين طليطلة وسرقسطة وكانت تتوارث حكم المدن الكبرى فى هذه المنطقة ، وأول من نعرفه من هذه الأسرة هو سالم بن ورعمال بن وكذات المصمودى من موالى بنى مخزوم ، فهى اذن من البربر الذين قدموا مع العرب فى جيش طارق بن زياد من شمال افريقية ، وسالم هذا هو الذى تنسب اليه « مدينة سالم » الواقعة فى منتصف الطريق بين مدريد وسرقسطة ، وقد كان من أبنائه قائد مشهور كذلك هو الفرج بن مسرة بن سالم الذى له يرجع الفضل فى بناء مدينة « وادى الحجارة » ومن أجل ذلك كان يطلق على هذه المدينة أيضا اسم « مدينة الفرج » . ومن هذا نرى أن هذه الأسرة البربرية الأصل كانت هى التى اضطلعت بتعمير هذه المنطقة الثغرية كلها واستحداث مدنها والنهوض بأمورها ، فاذا كنا نعرف أن أول عامل على مجريط كان يدعى عبيد الله بن سالم فلا نظننا بعيدين عن الصواب اذا قدرنا أن هذا القائد لابد أن يكون من تلك الأسرة المشهورة التى بنت أهم مدن هذه المنطقة فى أيام المسلمين وهما وادى الحجارة ومدينة سالم .

ونستخلص من نص ابن حيان كذلك أن مجريط ظلت وفية لسلطة الأمير بقرطبة متمسكة بطاعته على الرغم مما كانت تضطرب به طليطلة عاصمة الكورة من الفتنة والخلاف ، وأن أهل طليطلة كانوا يعرفون ذلك حينما نفوا عاملهم مسونة المذكور اليها ، اذ لم يفعلوا ذلك الا بهدف التخلص منه ، وقد حدث ما توقعوا ، فان عامل مجريط ــ عبيد الله بن سالم المذكور ــ لم يتردد فى قتله وتوجيه رأسه الى الأمير محمد .

ويدلنا هذا النص فضلا عن ذلك على أن الأمير محمدا حينما بنى مجريط وغيرها من قلاع هذه المنطقة الممتدة على السفوح الجنوبية لجبال وادى الرمل لم يكن يرمى بذلك الى الدفاع عن طليطلة ضد هجمات

النصارى فحسب ، وانما اتخذ من تلك الحصون قواعد تحيط بطليطلة وتأخذ بمخنقها اذا تجددت فيها المعصية أو مال أهلها الى التشغيب، والواقع ان طليطلة كانت قد أصبحت منذ فتحها المسلمون وكرا للعصيان والثورة ، وكانت جيوش الأمراء الأمويين بقرطبة تتكرر عليها بالغزو فتخلد تارة الى الطاعة ، ثم تعود الفتنة فيها الى الاضطرام من جديد . وأخيرا رأى هذا الأمير الأندلسى العظيم الذى تجلت مواهبه السياسية والعسكرية فى أكثر من مناسبة أن خير ما يضمن له السيطرة على طليطلة هو أن يحيطها بنطاق من القلاع الحصينة يشحنها برجاله وخاصته ليكونوا رقباء على طليطلة وطلائع لجيوش العاصمة الأندلسية اذا ندت من أهلها ثورة أو نزعوا الى خلاف وكان اعتماد الأمير محمد فى ذلك على أسرة بنى سالم أصحاب وادى الحجارة ومدينة سالم الذين أثبتوا للأمير ولاءهم واخلاصهم فى مناسبات كثيرة(١) .

مجريط فى أيام الخلافة الأموية :

ولاتمدنا المراجع الاسلامية بعد ذلك من أخبار مجريط الا بالقليل النزر ، ومن ذلك أننا نعرف اسم العامل الذى أسند اليه الخليفة القرطبى العظيم عبد الرحمن الناصر حكم هذا البلد فى سنة ٣١٧ (٩٢٩) ، وهو عبد الله بن محمد بن

(١) أورد ابن حيان فى هذه القطعة من كتاب « المقتبس » أخبارا كثيرة عن بنى سالم المذكورين ، وهى تدل على أنهم كانوا دائما أكثر حكام الثغور اخلاصا لقرطبة وايقاعا بالثوار الخارجين على الطاعة فى هذه الجهات .

ابن عبيد الله(١) . ولسنا نستبعد أن يكون هـذا العامل حفيدا لعبيد الله بن سالم الذى ذكرناه فى الفقرات السابقة ، لاسيما وأننا اعتدنا أن نرى مناصب حكم الجهات والأقاليم فى أكثر الأندلس ولاسيما فى مناطق الثغور يتوارثها أفراد الأسرة الواحدة.

ويبدو أن نصارى مملكة ليون Leon فى عهد الخليفة الأندلسى العظيم عبد الرحمن الناصر هاجموا مجريط فى احدى غاراتهم . ولا تحدثنا المراجع الاسلامية المعروفة حتى اليوم عن تلك الغارة ، ولكن المؤرخ المسيحى سامبيرو Sampiro يذكر فى مدونته أن ملك ليون رذمير الثانى Ramiro II استولى على مجريط فى سنة ٩٣٢ (التى تقابل ٣٢٠ هـ) (٢) ، واهمال المراجع الاسلامية لهذه الغارة يدل على أنها كانت أمرا عابرا غير ذى خطر . ولعلها كانت غارة خاطفة من تلك التى اعتدنا عليها فى مناطق الثغور ، وربما قدر فيها للملك النصرانى بعض النجاح ، ولكنها لم تعن احتلالا للمدينة بمعنى الكلمة ، فاننا نعرف من أخبار مجريط أنها ظلت قاعدة اسلامية بعد ذلك بسنوات قليلة . وقد أمدنا ابن الأبار باسم عامل جديد لها من قبل الخليفة الناصر فى سنة ٣٢٤ (٩٣٦م) هو أحمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثى(٣) ، وأحمد هذا هو حفيد الفقيه الأندلسى المشهور يحيى بن يحيى الليثى المصمودى تلميذ مالك بن أنس وراوية الموطأ ومدخل المذهب المالكى الى الأندلس ، واذا قدرنا ما كان ليحيى بن يحيى وأسرته من بعده من

(١) أنظر كتاب « قطع من تاريخ لعبد الرحمن الناصر مجهول المؤلف » ، نشر الأستاذين ليفى بروفنسال وغرسية غومس ، ط . مدريد وغرناطة سنة ١٩٥٠ ص ٨٤

(٢) انظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٥٢/٢ — ٥٣

(٣) ابن الابار : التكملة ، نشر أحمد بن أبى شنب والفريد بيل ، ط . الجزائر » ترجمة رقم ١١.

النفوذ الكبير فى حياة الأندلس عامة فان لنا أن نرى فى تعيين الفقيه القرطبى الكبير واليا على مجريط مظهرا من مظاهر خطر هـذا الثغر ودلالة على علو مكانته ما بين مدن الثغور الأندلسية · ويبدو أن الحرب على الحدود الاسلامية كانت سجالا فى هذه السنوات ، وأن نصارى الثغور المسيحية القريبة من مجريط مثل شقوبيـة Segovia قد اشتدت شوكتهم · نرى مظهرا لذلك فى حياة هذا العامل الفقيه المجاهد الذى يذكر ابن الأبار عنه أنه خرج فى السنة المذكورة (٣٢٤ هـ ــ ٩٣٦ م) الى بلاد النصارى فشن عليها غارة عنيفة أوقع فيها بهم (ولعلها كانت انتقاما لحملة رذمير السابقـة قبل ذلك بأربع سنوات) ، وعاد الى مجريط محملا بالغنائم ،ولكن كمينا من فرسان النصارى فاجأه فى الطريق ، فقاتلهم أحمـد بن عبد الله قتالا شديدا ولكنه استشهد هو وسبعة عشر من أصحابه ، ويبدو أن بقية جيشه اضطرت الى الاحتماء بقلعة طلمنكة القريبة ، فحملوا جسد قائدهم معهم ودفنوه فى تلك القلعة ·

ونعرف بعد ذلك أن مجريط كانت من بين الثغور التى تردد عليها بطل الأندلس العظيم المنصور بن أبى عامر فى غزواته المتكررة لاسبانيا النصرانية ، فابن عذارى يذكر فى « البيان المغرب » أن الحاجب العامرى خرج بالصائفة من قرطبة يوم عيد الفطر سـنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧م) فاجتمع بمجريط مع غالب قائد الثغـر الأدنى وصاحب مدينة سالم ، ومنها توجه الاثنان الى أرض النصارى ، وافتتحا فى هذه الغزوة حصن موله(١) ·

---

(١) أنظر البيان المغرب ٢٦٥/٢ ، وليفى بروفنسال : تاريخ ٢١٣/٢ ــ ٢١٤، ولم يحدد ليفى بروفنسال مكان حصن موله المذكور ، وان كان يظن أنه من بين القلاع المسيحية فى السفوح الجنوبية لجبال وادى الرمل ، على أن المستشرق الاسبانى أوليفر أسين يعتقد أن الأقرب الى الصواب هو أن يكون الحصن الذى يسمى اليوم La Muela على مقربة من مدينة سرية ·

وفي أثناء هذه الحملة التي كان لها فضـــل في سطوع نجم المنصورين أبي عامر وصعود طالعه تواطأ هو والقائد غالب على الايقاع بجعفر بن عثمان المصحفي الحاجب ودبرا أمرهما في ذلك حتى انتهيا الى تنحيته عن الوزارة وتمهيد السبيل بذلك أمام ابن أبي عامر لكي يستولى على مقاليد السلطة وتصبح له الكلمة العليا في الأندلس ٠

مجريط والفتنة القرطبية

ولكن الدولة الاسلامية في الأندلس لا تلبث أن تتصدع في أوائل القرن الخامس الهجرى بعد قتل عبد الرحمن بن المنصـــور العامرى سنة ٣٩٩ (١٠٠٩ م) ، ثم تستمر الفتنة المدمرة ،وتدور الحرب الأهلية الجائحة التي لم ينتظم للأندلس بعدها شمل ،وكان بطلا هذه الحرب المشئومة هما سليمان بن الحكم المستعين مع من انحاز اليه من البربر وحلفائه من نصارى قشتالة وغريمه محمد بن هشام بن عبد الجبار المهـــدى يعاونه القائد الصقلبي واضح ومن أزره من نصارى افرنجة (برشلونة) ، وتدور بين الفريقين معارك رهيبة فيما بين سنتي ٤٠٠ و ٤٠٣ ، وانما أشرنا الى هذه الوقائع لأن كثيرا منها دار في تلك المنطقة المحيطة بمجريط : عند قلعـة عبد السلام Alcala de Henares وعلى ضفاف وادى شرنبسة Rio Jarama الذى تقع تلك القلعـة على مقربة من حوضه ، وقد صور لنا الشاعر الأندلسي الكبير ابن دراج القسطلي طرفا من هذه الحروب في قصيدته الدالية التي مدح بها سـليمان المستعين وهنأه بانتصاره والتي يقول فيها :

حتى ارتقيت من المنابر رتبة عزت بها غر الرجال وصيدها
فى قبـــة الملك الذى صنهاجة وزناته أطنابها وعمودها (١)
وسراتها ودعاتها ورعاتهـــا وبناتها وحماتهـــا وأسودها
هم نوروا لك ليل كل مضلة سمرا وبيضا ما تجف غمودها
حلفـوا بربهم لعقد خـلافة أوصاهم ألا تحل عقـــودها
وبها استقاد لهم ملوك عداتهم وعنا لهم جبـــارها وعنيدها
واستودعوا جنبى «شرنبة» وقعة هد الجبال الراسيات وئيدها
دلفوا الى شهباء حان حصادها بظبى رؤوس الدارعين حصيدها
وشعاب « قنتيش » وقد حشرت لهم
أمم بغاة لا يكت عديدها (٢)

ثورة عبيد الله بن المهدى فى مجريط

ولابد أن مجريط أصابها من نار هذه الفتنة شواظ ، فهى تقع فى صميم هذه المنطقة التى شهدت ذلك الصراع الدامى العنيف بين المسلمين بعضهم والبعض ، بل اننا لا نلبث بعد ذلك بسنوات أن نرى «مجريط» مهدا لثورة أخرى أوشكت معه أن تتحول الى عاصمة لخلافة أندلسية جديدة تنازع قرطبة والقاهرة وبغداد .

وقد كان بطل هذه الثورة الجديدة رجلا غامضا اختلف حـول حقيقته الناس ، وكان العالم الأندلسى الكبير ابن حزم القرطبى هو الذى روى لنا خبر ثورته فى سطور موجزة من كتابه (نقط العروس فى تواريخ الخلفاء » اذ يقول فى الكلام عمن طلب الخلافة ولم يتم أمره :

(١) صنهاجة وزناتة من أكبر القبائل البربرية ، وكان البربر يؤيدون سليمان المستعين فى قتاله لمحمد بن هشام المهدى زعيم الحزب الأندلسى .

(٢) أنظر ديوان ابن دراج القسطلى ، تحقيق د. محمود على مكى ، نشر المكتب الاسلامى بدمشق سنة ١٩٦١ ص ٦٢ ــ ٦٤.

« عبيد الله بن المهدى ، قام على المستكفى بمجريط ، وثب به وقتل • قال أبو محمد (أى ابن حزم) : صح عندنا أنه لم يكن عبيد الله بن المهدى ، وانما كان غلام العطار المعروف بالفصيح وادعى أنه عبيد الله بن المهدى » (١) .

على أن نص ابن حزم الذى نقلناه هنا بنصه من الايجاز والاقتضاب بحيث لم يكن من السهل تأويله ، وهذا هو ما جعل الأستاذ أوليفر أسين مؤرخ مجريط ـ وهو أول من استفاد منه ـ يبعد فى تفسير هذه الثورة ويختلط عليه أمرها ، فقد ظن المؤرخ اللغوى الجليل أن هذا الثائر الذى أماط ابن حزم اللثام عن حقيقة شخصيته ، وهو غلام الفصيح العطار ، انما قام بثورته ونادى بنفسه خليفة منتحلا شخصية عبيد الله المهدى منشىء دولة الفاطميين التى أعلنت أولا فى القيروان سنة ٢٩٦ (٩٠٩م) ثم اتسعت بعد ذلك فشملت الشمال الافريقى كله قبل أن تحتل مصر فى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وكان عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين يحكم تلك الدولة الجديدة فيما بين سنتى ٩٠٩ و٩٣٤ م • وقد ظن أوليفر أسين أن غلام الفصيح الذى اتخذ من مجريط مركزا لثورته السياسية والدينية كان واحدا من الدعاة الفاطميين الذين كانت الدعوة تبعث بهم الى مشارق العالم الاسلامى ومغاربه ، وأنه موه على الناس مدعيا أنه عبيد الله المهدى ، ولكن المستشرق الاسبانى لم يستطع أن يقطع بتاريخ محدد لهذه الثورة،

(١) نقط العروس ، بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، سنة ١٩٥١ ص٥٨ ـ ٥٩

فهو لم يعرف ما اذا كانت قد نشبت قبل وفاة مهدى الفاطميين الحقيقى أو بعدها ، ولو أنه رجح أن يكون ذلك بعد وفاته فى٩٣٤م بسنوات قليلة ، أى فى أيام عبد الرحمن الناصر أول خلفاء بنى أمية فى الأندلس(١) .

وقد ناقشنا رأى أوليفر أسين فى بحث أفردناه لهذه الثورة ونشرناه فى « صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد »(٢) ، وانتهينا من اعادة دراسة هذا الحدث التاريخى الذى كانت مجريط ميدانه الى رأى آخر ، هو أن هذا الثائر الجرىء لم تكن له أدنى علاقة بالدعوة الفاطمية ولا بمؤسس دولتها عبيد الله المهدى ،وانما كان ثائرا على الخليفة الأموى محمد المستكفى بالله الذى تربع على عرش قرطبة سنة وبضعة شهور بين عامى ٤١٤ و ٤١٥ هـ . (من ١٧ يناير ١٠٢٤ الى ٢٦ مايو ١٠٢٥) فى تلك الفترة المضطربة الحافلة بالفتن والحروب الأهلية التى أعقبت تصدع خلافة الأمويين بالأندلس(٣) .

أما الشخصية التى حاول الثائر المجريطى انتحالها فقد كانت شخصية أحد أمراء البيت الأموى وهو عبيد الله بن محمد بن هشام ابن عبد الجبار ، وأبوه هو محمد بن هشام المعروف بالمهدى الذى كان أول من فتح باب الفتنة فى الأندلس بثورته على عبد الرحمن ابن المنصور بن أبى عامر فى جمادى الثانية سنة ٣٩٩ (فبراير

(١) أنظر تاريخ اسم مدريد ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨

(٢) محمود مكى : حول ثورة عبيد الله بن المهدى فى مجريط « بحث بالاسبانية » صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلدان التاسع والعاشر سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ ص ٢٥٥ ـ ٢٦٠ « القسم الأوربى »

(٣) عن حكم المستكفى أنظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢/٣٣٥ ـ ٣٣٦ ، والمستكفى هذا هو والد الاميرة الشاعرة المشهورة ولادة صاحبة ابن زيدون .

١٠٠٩ م) ، ونحن نعرف أن محمدا المهدى هذا ولى الخلافة مرتين قبل أن يغدر به أنصاره ويقتلوه فى ٢٣ يوليه سنة ١٠١٠ ،وكان مصرعه بعد أكثر من سنة من صراع مستمر مع سليمان بن الحكم المستعين دار أكثره في منطقة الثغر الأدنى وعلى ضفاف وادى شرنبة كما رأينا من قبل فى الأبيات التى نقلناها عن ابن دراج القسطلى ، أى فى نفس المنطقة المحيطة بمجريط ، وهذا هو ما جعل ثائر مجريط ينتحل شخصية ابن يدعى عبيد الله لهذا الخليفة المنكود الذى قضى الشطر الأخير من حياته متنقلا فى أنحاء الثغر الأدنى (طليطلة) خلال ذلك الصراع العنيف الذى دار بينه وبين خصومه ومنافسيه ، وقد ذكر أبو محمد بن حزم بالفعل فى كتاب آخر من كتبه(١) أن المهدى قد أعقب بالفعل ولدا يدعى عبيد الله توفى بقرطبة دون خلف . وهكذا نرى أن غلام الفصيح المذكور أراد أن يموه على الناس مدعيا أنه عبيد الله المذكور ومطالبا بالخلافة باعتبارها ميراثا له من « أبيه » الذى غدر به أنصاره وقتلوه ،وكانت ثورته اذن على « ابن عمه » المستكفى بالله على حد زعمه . ولكن هذا النسب الذى ادعاه المغامر الجرىء لم يكن ليغيب على رجل واسع العلم بأنساب بنى أمية مثل ابن حزم وان كان قد خدع به قوما كثيرين ناصروه والتفوا حوله من أهل مجريط .

وقد كان غلام الفصيح المذكور لا يخلو مع جرأته وجسارته من معرفة بالأدب ومشاركة فى قول الشعر ، كما تشهد بذلك ترجمته التى نقلها الحميدى فى « جذوة المقتبس » عن أستاذه ابن حزم ، والتى أورد له فيها مختارات من قصيدة له قالها بمناسبة ثورته :

---

(١) جمهرة انساب العرب ، نشر ليفى بروفنسال ، ط. القاهرة سنة ١٩٤٨ ص ٩٢

يامن يعـــذبنى مســـتعذبا ألمى
يكفيـــك ماقد برى جسمي من الألم
حكمت لى بقضـــاء غير مقتصــــــد
تفـديك نفسى من قاض ومن حـكم
يا قصر قرطبـــــة هيجت لى شجنا
لمـــا تأبدت بعـد الــكنس الرئم
معـــاهد عمرت فيهـــا خلافتنـــا
أكفنـــا فوقهـــا بالجـــود كالديم
أيام للمــلك المهـــدى دولتــــه
فيها فقد أصبحت فى الدهر كالحلم
فان أعش فسأبكيـــه بذى شـطب
ومارن كشهاب النـــار مضطرم(١)

ونحن نرى من هذه الأبيات أن الثائر المجريطى الذى زعم أنه ابن المهدى يبكى الأيام التى كان «أبوه» المزعوم يتربع فيها عـلى العرش فى قصر قرطبة ثم يصرح بعزمه على الثأر لمصرع المهـدى وتصميمه على استرداد « عرشه » المغتصب ، ويبدو من الواضح أن هذه الأبيات قد قيلت بمناسبة الثورة التى أعلنها على المستكفى ذلك الشاب الطموح الجسور ، والتى لو قدر لها نجاح لأصبحنـا نرى مجريط منذ أوائل القرن الحادى عشر وقد تحولت الى مقـــر لخلافة أندلسية أموية جديدة وعاصمة للمملكة الاسلامية فىاسبانيا قبل أن يقدر لها أن تصبح عاصمة اسبانيا الكاثوليكية بخمســة قرون .

غير أن محاولة الفتى المجريطى غلام الفصيح العطار انتهت الى الفشل ، وقتل هذا الثائر المحتال بعد أو وفق الى اقناع كثير من

---

(١) جذوة المقتبس ، ترجمة رقم ٩٨٣ « ط . القاهرة سنة ١٩٥٢ »

أهل مجريط بعدالة قضيته ، وانتهى أمره ، ولو أن ذكراه لم تنقرض تماما من المدينة ، فاننـــا نجد في خرائط مدريد القديمة أنه كان هناك في بعض أحيائها ذات التاريخ العربى شارع كانوا يدعونه Calle de Alatar أى شـــارع العطار) ، وهكذا كان يسمى حتى القرن السابع عشر(١) ، فهل يكون فى هـــذا الاسم مايذكر بتلك الثورة التى حمل لواءها في مدريد ذلك الفتى الذى ادعى أنه أمير أموى مع أنه لم يكن فى الحقيقية الا « غلام العطار » ؟...

مجريط فى عصر الطوائف :

وقد أعقب انهيار الخلافة الأموية فى أوائل القرن الحادى عشر أن الأندلس تمزقت الى دويلات صغيرة هى التى يعرفها التـــاريخ باسم «الطوائف» . وكانت مجريط فى هذا التوزيع الذى جرى على تركة الأمويين هى وسائر مدن الثغر الأدنى من نصيب مملكة طليطلة التى كان يحكمها بنو ذى النون الهواريون ، ونحن نعرف أن هذه المنطقـــة الواقعة في وسط شبه الجزيرة كانت هى أول ما تعرض من بلاد الأندلس لهجمات النصارى ، ولاسيما منذ أن ولى حكم قشـــتاله Castilla الملك الفنش (ألفونسو الســـادس Alfonso VI) فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وكان من الغريب أن انهيار الدولة الاسلامية في الأندلس لم يبدأ من أطرافها في الشمال أو أقصى الغرب ، بل بدأ من الوسط : من هذه المنطقة المحيطة بطليطلة على السفوح الجنوبية لجبال وادى الرمل ، وهذا

---

(١) أنظر بحث الاستاذ أوليفر أسين عن « الصناعة فى مدريد منـــذ انشائها حتى سنة ١٤٠٠ » ـ محاضرة القاها المؤلف فى الفرقة الصناعية فى مـــدريد فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٦٢ ، ط . مدريد ١٩٦٣ ص ٤٢

هو ما أشار اليه الزاهد الطليطلى ابن العسال فى أبيات قالهـــا بمناسبة سقوط طليطلة فى أيدى النصارى[1] :

يا أهـــل أندلس حثوا مطيـــكم
فمـــا المقـــام بهـــا الا من الغلط

الثوب ينســـل من أطـــرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوســـط

وكان هذا بالفعل بداية النهاية للاسلام فى الأندلس ، فان انهيار هذه الجبهة الوسطى للاسلام الأندلسى كان نذيرا بانهيار باقى الجبهـات ، فلم تلبث منطقـة الثغر الأعلى (سرقسطة) أن سقطت بعد ذلك فى أوائل القرن الثانى عشر وتلتها بعد ذلك القواعد الأندلسية الكبرى فى القرن التالى .

أما مجريط فقد استولى عليها ألفونسو السادس فى سنة ٤٧٦ (١٠٨٣) فى جملة ما استولى عليه من حصون تلك المنطقة ومدنها مثل طلمنكة ووادى الحجارة وغيرهما . وأدى ذلك بعـد سنوات قليلة الى سقوط القاعدة الكبرى : طليطلة فى سنة ٤٧٨ (١٠٨٥). وكانت هذه أول كارثة كبرى تحل بالاســلام فى الأندلس ، ولم يستقل هذا القطر من تلك العثرة على الرغم مما بذله المرابطون بقيادة زعيمهم العبقرى يوسف بن تاشفين فى سبيل استنقاذ هذه العاصمة من أيدى القشتاليين . ولا سيما بعد أن أحرز القـائد المرابطى انتصارا ساحقا على ألفونسو السادس فى موقعة الزلاقة فى ١٢ رجب سنة ٤٧٩ (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦) .

---

(١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب « بتحقيق الدكتور شوقى ضيف » ٢١/٢

مجريط فى عهد المرابطين والموحدين

وبذا ينتهى تاريخ الحكم الاسلامى فى مجريط ، ولم يفلح المرابطون ولا الموحدون من بعدهم فى استخلاصها من أيدى المسيحين ، هذا وان كانت الجالية الاسلامية ظلت فيها كبيرة حتى القرن السابع عشر الميلادى .

ونحن نعرف من محاولات المرابطين استرجاع مجريط مايذكره بعض مؤرخى هذه الدولة من أن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين قاد فى سنة ٥٠٣ (١١٠٩) جيشا عظيما حاصر به طليطلة وفتح طلبيرة Talavera de la Reina واستولى من أعمال طليطلة على سبعة وعشرين حصنا منها مجريط ووادى الحجارة وبالغ فى النكاية ثم قفل الى قرطبة[1] .

ولو صح هذا الخبر ـ ولسنا نميل الى تأكيد صحته ـ فان بقاء مجريط فى أيدى المسلمين لم يطل ، اذ سرعان مانجد هذه المدينة وقد أصبحت قاعدة نصرانية تتوجه منها جيوش قشتالة لغزو بلاد المسلمين بعد أن كان الأمر بضد ذلك من قبل .

ولم تكن هذه هى المحاولة الأخيرة من أجل الاستيلاء على مجريط ، فقد تكرر ذلك مرة أخرى بعد تسعين سنة فى أيام الخليفة الموحدى

---

(١) انظر ابن أبى زرع : روض القرطاس ٨٥/٢ ، ط . فاس سنة ١٩٣٦ والسلاوى : الاستقصا « ط . الدار البيضاء » ٥٩/٢ ، على أن المؤرخين ابن عذارى وابن القطان ـ وهما أوثق من كتب عن تاريخ الموحدين ـ لم يشيرا فيما كتباه الى فتح مجريط ، والهما يكتفيان بتسمية هذه الحملة « غزوة طلبيرة » (انظر نظم الجمان لابن القطان بتحقيقنا ـ ط . تطوان سنة ١٩٦٤ ص ١٣ ـ ١٤) والحصن الوحيد الذى يشير ابن القطان الى فتحه من حصون منطقة مجريط هو قنالش Canales . وانظر كذلك مقال المستشرق الاسبانى أويثى ميراندا : روض القرطاس والمرابطون ـ مجلة اسبيريس ـ الرباط سنة ١٩٦٠ ص ٥٣٥ .

العظيم أبى يوسف يعقوب المنصور . يقول المؤرخ المغربى الناصرى السلاوى فى ذلك بعد حديثه عن موقعه الأرك Alarcos التى هزم فيها جيوش ملك قشتاله آلفونسو الثامن هزيمة ساحقة سنة ٥٩١ (١١٩٥) :

« ثم تقدم المنصور الى مدينة طليطلة ، فحاصرها وقاتلها قتالا شديدا ، وقطع أشجارها وشن الغارات على ماحولها من البلاد ، وفتح فيها عدة حصون مثل قلعه رباح Calatrava ووادى الحجارة ومجريط وجبل سليمان (؟) واقليج (Ucles) وكثير من أحواز طليطلة ، ثم ارتحل من طليطله الى طلمنكه Talamanca ، فدخلها عنوة بالسيف ، فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية وغنم أموالها وهدم أسوارها واضرم النيران فى جوانبها ، وتركها قاعا صفصفا » (١) .

ولكن هذا الفتح – لو صح خبره – كان مثل سابقه فى أيام المرابطين عابرا لم يقدر له دوام ولا اتصال ، وهذا فى الواقع أمر طبيعى اذ لم يكن من الممكن أن يحتفظ المسلمون بمجريط وطلمنكة ووادى الحجارة وقلعة رباح مادام النصارى مسيطرين على طليطلة. ولهذا فان هذه الغزوة لم يترتب عليها استرداد المدن المذكورة فى النص بمعنى الكلمة ، وانما كانت غارات تخريبية لم يهدف من ورائها الى احتلال .

وفى سنة ٥٩٣ (١١٩٧) يتوجه المنصور مرة أخرى من اشبيلية الى قرطبة ومنها الى طليطلة ، ويصف لنا ابن عذارى هذه الحركة بمزيد من التفصيل فيقول :

« ولما بلغ المنصور بقرطبة مراده ، وأحكم تدبيره وأكمل استعداده ، تحرك رحمه الله على أيمن الأقدار ، ومساعدة من خدمة الليل والنهار ، وأخذ على طريق طلبيرة ، وقد كان أذنونش اللعين

(١) السلاوى : الاستقصا ١٧٢/٢

(ألفونسو الثامن) عند اشراف المنصور على بلاده ، بعساكر المسلمين قدم رسله فى طلب المهادنة والاستسلام ، والوقوف عند الأمر والالتزام ، فنظر المنصور بنور التوفيق والرشاد ، ألا يحل ما انعقد عليه العزم من صريمة الغزو والجهاد ، فانصرف رسله من غير جواب ، الا انتظار سنان وصارم قضاب .

وتمادى المشى على هذا الأسلوب ، وعلى ما أمل من المرغوب ، حتى كان الالمام بطليطلة ، فغشيها أعظم مما تقدم من الانتهاك والانتهاب ، بالاستئصال والاتلاف والاذهاب ، ثم اتصلت الأنباء أن الكافر البرشلونى أمد أذفونش برجاله وأبطاله ، وهم بحصن مجريط يقدمون ويؤخرون ، ويخوضون فيما لا يفعلون ، فقصد المنصور اليهم وصمم نحوهم تصميم الواثق بالعلى الكبير ، رجاء ان تزل أقدامهم ، وعسى أن يحركهم حمامهم ، وعندما أشرف المسلمون على الحصن المذكور ، وأحدقوا به احداق الهالات بالبدور ، وأكثروا التهليل والتكبير ، والتعظيم للعلى الكبير ، فكادت تتصدع لصيحتهم أكباد الصخور ، ويهتز لصكتها رميم أهل القبور ، فعند ذلك انصدعت جموع أذفونش وأسلمه أحلافه ، وجعل يتعلق بجباله لحرقه وأوجاله .

ولما بلغ المنصور على حصن مجريط فوق ما أمل من المقصود ، وضعضعت صكة وطئه قاسيات القلوب ، ومزقت فل الكافرين من الحشود والجنود ، وعلم الكافر أنه لا يملك من أمره فتيلا ، ولا يحاول فى كشف ما أنزل الله سبحانه متصرفا ولا تحويلا ، استقبل المنصور بحركته وجه الشرق ، فأخذ من حصن مجريط على وادى الحجارة فى منازل وربوع ، وأشجار وزروع ، فمشى العمل فيها على ما تقدم من الترتيب ، فى الاستئصال والتخريب ، ولما حلت العساكر بساحتها وانبسطوا على جنباتها تسابق بعض الناس الى البلد وقد كان الكافر شحنها بجملة رجاله وكماته ، وأهل الثقة عنده من حماته ،

فخرجوا الى الطائشة من أتباع المحلة وسوادهم ، فظهروا عليهم فى طرادهم ، حتى توالى السابقون فأكبوهم على أذقانهم ، وأوردوهم بين قتيل وجريح فى أنقابهم وأكفانهم »(١) •

هذا هو نص ابن عذارى حول مناجزة يعقوب المنصور لمجريط نقلناه بنصه لأنه يطلعنا على مدى خطر هذه المدينة التى أصبحت كما نرى من أهم معاقل اسبانيا المسيحية وخطوط دفاعها ضد هجمات المسلمين على عكس ما كانت عليه فيما مضى ، وقد بلغ من خطرها أنها كانت أشبه بمعسكر القيادة العامة لجيوش النصرانية ، اذ كان ممتدها ملتقى قوات مملكتى قشتالة وأرغون Aragon • كذلك نرى أن مهاجمة المنصور الموحدى لها لم تكن بقصد احتلال طويل المـدى وانما كانت احدى الغارات التى قصد بها « التخريب والاستئصال » فحسب كما ينص ابن عذارى •

وقد درس المستشرق الاسبانى أويثى ميراندا فى كتابه « تاريخ دولة الموحدين » حملة المنصور هذه مقابلا النصوص العربية على المسيحية ، فوصف لنا خط سيرها ، وقال ان الجيش الموحدى توجه من قرطبة شمالا الى طلبيرة Talavera ، ومنها الى مكادة Maqueda ثم الى طليطلة ، وبعد أن حاصرها سار الى أوريلية Oreja ثم توجه شمالا الى مجريط فاكتفى بشن الغارات عليها وانتساف بسائطها ، ويبدو أن جيوش قشتالة وأرغون المؤتلفة احتمت منه بأسوار المدينة، ثم اتجه المنصور شرقا الى قلعة عبد السلام Alcala de Henares وبعدها الى وادى الحجارة ، ثم انحرف الى وبذة Huete فى الجنوب الغربى ، وأقليش Uclés وكونكة Cuenca ، وبعد ذلك قرر المنصور العودة الى قواعده بالأندلس فاتخذ على طريق الكرس Alcaraz

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ـ القسم الثالث الخاص بتاريخ الموحدين ، نشر أويثى ميراندا الطبعة الثانية تطوان سنة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

الى أبدة Ubeda وبياسة Baeza ثم الى جيان Jaén وأخيرا عاد الى قرطبة بعد أن استغرقت هـــذه الحملة ضـــد طليطلة نحو أربعة شهور (١) .

وتؤكد لنا أخبار المدونات النصرانية ماسبق أن أشرنا اليه فى نص ابن عذارى من تحـول مجريط الى مركز استراتيجى له خطره فى شن الغارات على الأندلس الاسلامية ، فنحن نجد فيها أخبارا عديدة عن الحملات التى وجهها ملك قشتالة الى بلاد المسلمين من هذه المواقع التى كانت فى العصور السابقة ثغورا اسـلامية جليلة . من ذلك مايذكر فى أخبار سنة ٦٠٩ هـ . (١٢١١ م) من خروج ألفونسو الثـامن وابنه وولى عهـده فرناندو Fernando بجموع كثيرة من مجريط ووادى الحجارة ووبذة وأقليش ، فاتجها شرقا فى الطريق الخارج الى بانسية وشرق الأندلس فهاجما شاطبة Jativa (٢) ، وخرب المسيحيون فى هذه الحملة كثيرا من قرى هذه الجهات ووصلوا الى ساحل البحر الأبيض ثم عادوا وقد أسروا عددا من المسلمين وظفروا بكثير من الغنائم(٣) .

---

(١) أويثى : تاريخ الدولة الموحدية ص ٣٧٦ — ٣٧٨.

(٢) كان من آثار هذه الحملات التى قامت بها جيوش قشتالة من قواعدها فى مجريط ووادى الحجارة وغيرها من هذه الثغور على بلنسـية وشرق الاندلس أن هاجر كثير من أهلها أما الى المدن الأندلسية التى كانت أكثر متعة وأقل تعـرضا للخطر أو الى شمال أفريقية والشرق العربى . ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نشير الى عالم مشهور من مدينة شاطبة التى ذكرنا هجوم النصـارى عليها هاجر فى هذه الظروف المضطربة الى مصر ، ونعنى به العـالم المفسر المقرىء القاسم بن فيره الرعينى الشـاطبى (٥٣٨ = ١١٤٤ ـ ١١٩٤ م » الذى ألقى عصا التسـيار فى الاسكندرية حيث طار صيته ، وخلد اسمه بعد موته الى اليوم ، اذ اليه ينسب الحى والشاطىء المعروفان باسم الشاطبى بالاسكندرية .

(٣) أويثى : تاريخ الدولة الموحدية ص ٤٢٨

مجريط فى ظل المسيحيين

ولا ينتصف القرن الثالث عشر حتى تطوى هذه الصفحات الأخيرة من تاريخ مدريد باعتبارها من ميادين الصراع بين الاسلام والمسيحية فى الاندلس ، ولا نعود نسمع بعد ذلك عن أى محاولة جديدة لهاجمتها من قبل المسلمين ، ولا غرو فقد حددت موقعة العقاب Las Navas de Tolosa الواقعة سنة ٦١٠ (١٢١٢م) آخر مراحل هذا الصراع فى أيام الموحدين ، فقد كان انتصار المسيحيين فيها على جيوش محمد الناصر ممهدا لسقوط القواعد الأندلسية الكبرى مثل قرطبة واشبيلية وجيان ومرسية وبلنسية والجزائر الشرقية (جزر البليار) ويطليوس فى خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ، وهكذا لم يشرف هذا القرن على نهايته حتى كانت المملكة الاسلامية قد انحصرت فى غرناطة ومالقة والمرية ، أى فى الجزء الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة .

ومع ذلك فقد بقى فى مجريط أو مدريد كما أصبحت تسمى فى ذلك الوقت عدد كبير من أهل الدجن أو المدجنين Mudejares وهم المسلمون الذين احتفظوا بدينهم رغم خضوعهم للحكم المسيحى . ونود بهذه المناسبة أن نذكر حقيقة كثيرا ماتغيب على دارسى تاريخ الاسلام فى الأندلس ، هى أن الاسلام والثقافة العربية فى مدن اسبانيا لم يكونا ينتهيان بانتهاء سيطرة المسلمين السياسية أو العسكرية على البلاد ، ولنا فى مجريط مثل واضح على مانقول ، فهذه المدينة تعتبر نسبيا من أقصر مدن أسبانيا عمرا فى الاسلام ، اذ يقدر بقاء المسلمين فيها بأقل من ثلاثمائة سنة من وقت انشائها فى منتصف القرن التاسع الميلادى حتى أواخر القرن الحادى عشر ، ومع ذلك فقد بقيت فيها جالية اسلامية كبيرة منذ ذلك الوقت حتى أوائل القرن السابع عشر أى أكثر من خمسة قرون(١) ، وماذكرناه

عن مدريد يمكن أن يقال عن أكثر مدن اسبانيا حتى ما لم يعرف له تاريخ اسلامى على الاطلاق ، وهذا هو مايفسر لنا الأثر العميق الذى خلفته الحضارة الاسلامية والعربية فىاسبانيا كلها على طولها وعرضها •

هذا وقد ظل عدد المدجنين أو الموريسكيين المسلمين يتناقص فى مدريد بالتدريج خلال العصور الأخيرة اما لهجرة كثيرين منهم الى مابقى من مدن الاسلام فى الأندلس أو لاضطرار بعضهم الى التنصر تحت وطأة الاضطهاد الدينى الذى تعرضوا له من جانب محاكم التحقيق La Inquisicion • وتحدثنا المراجع التاريخية التى كتبت فى القرن السابع عشر عن طرد مجموعة من الموريسكيين من مدريد فى سنة ١٦١٠ • وسنورد فيما يلى بيانا احصائيا بهؤلاء المسلمين الذين طردوا فى تلك السنة لا من مدريد وحدها التى أصبحت فى ذلك الوقت عاصمة اسبانيا ، بل كذلك من بعض المدن والقرى المجاورة لها :

٣٨٩ من مدريد

٧١ من توريخون دى بيلاسكو Torrejon de Velasco

٢٠٣ من باراخاس Barajas (قرية ينسب اليها الآن مطار مدريد)

١٧٤ من طلمنكة Talamanca

١٥٣ من بالديمورو Valdemoro (قرية الى جنوب مدريد تبعد عنها بنحو خمسة وعشرين كيلو مترا ، واسمها يدل على الأثر العربى فيها اذ معناه « وادى العربى»)

---

(١) سبق أن أشرنا فى ثنايا هذا البحث الى أنه كان هناك حى « كبير فى مدريديقيم فيه الموريسكيون المسلمون ، وكان يطل على هذا الحى الواقع فى جنوب المدينة أحد أبوابها الكبرى وهو الذى يحمل بالذات اسم « باب المسلمين » •

١٢٠٩ من قلعة عبد السلام Alcala de Henares
٤١٢٨ من طليطلة
٩٢١ من وادى الحجارة
٧٢٤٥ المجموع(١)

ولا شك فى أن هـذه الأرقام لاتدل دلالة صحيحة تماما على عدد المسلمين الذين طردوا من منطقة مدريد ، اذ أننا نعرف أن المؤرخين الاسبان القدماء يتزعون دائما الى تقليل أعداد الموريسكيين الذين حكم عليهم بالطرد توقيا لمهاجمتهم ورمى الحكومة الاسبانية بالتعصب ، ثم تهوينا منشأن النفوذ العربى والاسلامى فىاسبانيا. وهذا هو مايحملنا على الظن بأن الأعـداد الحقيقية للموريسكيين المطرودين كانت أكبر ممـا ذكر بكثير ، هذا فضلا عمن بقى منهم متظاهرا بالتنصر ، ولعلهم أكثر ممن طردوا بالفعل .

(١) انظر كتاب خانير : الوضع الاجتماعى للموريسكيين فى اسبانيا : JANER
Condiciôn social de los moriscos de España, Madrid 1857, P. 347

الحياة العلمية فى "مجريط" العربية

كانت مجريط العربية كما رأينا قلعة عسكرية حصينة وبلدا زراعيا ناضرا كثير الخيرات والثمرات ومدينة حافلة بالتجارة ومختلف ألوان الصناعة فان النشاط العلمى والثقافى فيها لم يكن دون ذلك • وعلى الرغم من حداثة انشائها نسبيا فانها لم تخل من علماء ورجال فكر نابهين يفخر بهم ماضيها الاسلامى ، وسنسجل فى الصفحات التالية ماوقع لنا من أخبار حول علماء مجريط العربية أو أولئك الذين هاجروا من هذه المدينة أو اليها من الشخصيات البارزة فى شتى ميادين الثقافة •

وأول من نعرفه ممن اشتهر من العلماء المجريطيين هو أبوعثمان سعيد بن سالم الذى كان من أشهر المحدثين فى منطقة الثغر الأدنى، ويبدو أنه لم يجاوز دائرة بلده وما حوله ، فالمراجع لاتذكر من أساتذته الا وهب بن عيسى الطليطلى ووهب بن مسرة الحجارى (من وادى الحجارة) وكان كلاهما من أشهر العلماء بالحديث فى الأندلس ، أما سعيد بن سالم المجريطى فقد توفى فى بلده سنة ٣٧٦ (٩٨٦) فى عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر بعد أن بلغت

منزلته درجة عظيمة بين أهل الثغر ، فقد كان طلبة هذه المنطقة يرحلون اليه للسماع منه (١) .

ومن الأسر المجريطية المعروفة أسرة بني حماد التي كان من أول ممثليها أبو المطرف عبد الرحمن بن عبد الله بن حماد ، ولد سنة ٣٣٠ (٩٤٢) في خلافة عبد الرحمن الناصر وكان واسع الثقافة ، يدل على ذلك تنوع اتجاهات الأساتذة الذين تلمذعليهم، فقد كان من بينهم عدد من أعظم الفقهاء وعلماء الوثائق من أمثال ابن الهندي وابن العطار وابن أبي زمنين الالبيري ، ولغوى ونحوى لاسمه شهرة طائرة في العالم العربي كله مشرقه ومغربه : هو أبو بكر الزبيدي الاشبيلي . وكان عبد الرحمن بن حماد ثقة في روايته دينا متواضعا ، وتوفي سنة ٤٠٧ (١٠١٧ م) عن أكثر من خمس وسبعين سنة (٢) .

ولم يكن ابنه أبو يعقوب يوسف الحمادي أقل منه منزلة ولا شهرة ، ولد في مجريط سنة ٣٩٥ (١٠٠٥ م) ونشأ فيها ، وسمع عن أبيه كل ماروواه من كتب ، ثم أخذ عن كبار العلماء الثغريين مثل أبي عمر الطلمنكي وأبي محمد الشنتجالي الطليطلي وغيرهما ، ثم رحل الى المشرق لأداء فريضة الحج ، ولقي أبا ذر الهروي وسمع منه ، كذلك أخذ عن علماء كثيرين بمصر وبرقة وطرابلس ، ثم عاد الى بلاده حيث كان موقف الاسلام قد بدأ يتحرج بعد تكرر هجمات النصارى على طليطلة وأعمالها ، ولكنه مع ذلك لم يفكر

---

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ترجمة رقم ١٥٠٥ الضبي : بغية الملتمس ، رقم ٨٠٦ ، ياقوت : معجم البلدان ٣٩٤/٧

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٦٨٢

فى مغادرتها ، وظل بها يقوم بالتدريس حتى وفاته سنة ٤٧٣ (١٠٨١) أى قبل سقوط مجريط فى يد ألفونسو السادس بثلاث سنوات(١) .

وهناك من أهل مجريط من انتقل منها واستقر فى غيرها من عواصم الأندلس أو الشرق ، اما طلبا للعلم أو فرارا بدينهم بعد أن استولى المسيحيون على المدينة . ومن أول من نعرفه من هؤلاء المهاجرين أبو محمد عبد الله بن سعيد المجريطى ، ولد فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وأخذ العلم ببلده وبطليطلة ، ثم انتقل الى قرطبة حيث تلمذ على علمائها ، ورحل بعد ذلك الى المشرق حيث حضرته وفاته فى سنة ٣٤٠ أو ٣٩١ (١٠٠٠ — ١٠٠١م) (٢) .

ومن أشهر هؤلاء المجريطيين المهاجرين أبو نصر هارون بن موسى ابن صالح بن جندل القيسى الذى انتقل فى شبابه الى قرطبة ، وكان تلميذا لأبى عمر الطلمنكى وأبى عمر بن عبد البر وغيرهما من من المحدثين والفقهاء . والى جانب ذلك كان ابن جندل من أكثر تلاميذ اللغوى الكبير أبى على القالى اتصالا به وقربا اليه ، مما يحملنا على تقدير مدى مابلغ من منزلة فى علوم النحو واللغة والأدب حتى انه عرف بلقب « النحوى » .

ومن طريف مايذكره ابن بشكوال عنه خبر عرض له مع أستاذه القالى لانرى بأسا بأن نورده هنا لما يصوره من حرص هذا الأديب المجريطى على العلم ومدى تأثره بالقدوة الطيبة والمثل الصالح الذى ضربه أستاذه القالى فى الاخلاص للعلم والتضحية فى سبيله.

(١) نفس المرجع ، رقم ١٣٨٧

(٢) نفس المرجع ، رقم ٥٤٨

يقول ابن جندل : كنا نختلف الى أبى على البغدادى رحمه الله وقت املائه «النوادر» بجامع الزهراء ، ونحن فى فصل الربيع ، فبينما أنا ذات يوم فى بعض الطريق اذ أخذتنى سحابة ، فمـا وصلت الى مجلسه الا وقد ابتلت ثيابى كلها ، وحوالى أبى على أعلام أهل قرطبة . فأمرنى بالدنو منه وقال لى : مهلا يا أبا نصر ، لا تأسف على ما عرض لك ، فهذا شىء يضمحل عنك بثياب غيرها تبدلها . ولقد عرض لى ما أبقى بجسمى ندوبا تدخل معى القبر .

ثم قال (أى أبو على القالى) : كنت أختلف الى ابن مجاهد رحمه الله ، فأدلجت اليه لأقترب منـــه فلما انتهيت الى الدرب الذى كنت أخرج منه الى مجلسه ألفيته مغلقا ، وراث (أى أبطأ) على فتحه ، فقلت سبحان الله ! أبكر هذا البكور وأغلب على القرب منه ؟ ! فنظرت الى سرب بجنب الدار ، فاقتحمته أشد اقتحام حتى نفذت منه بعد أن تخرقت ثيابى وأثر السرب فى لحمى حتى انكشف العظم ، ومن الله على بالخروج ، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال . فأين أنت مما عرض لى ؟ ! .

وأنشـــدنا :

دنوت للمجد والساعون قد بلغوا
جهـــد النفوس وألقوا دونه الأزرا

فكابدوا المجد حتى مل أكثرهم
وعانق المجـد من أوفى ومن صبرا

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله
لن تبلغ المجـــد حتى تلعق الصبرا

ويكمل ابن جندل حديثه فيقول : فكتبنا الأبيات عنه قبل يأتي موضعها في نوادره ، وسلاني بما حكاه وهان عندي ما عرض لي من بلل الثياب . واستكثرت من الاختلاف اليه ، ولم أفارقه حتى مات رحمه الله(١) .

ونعود الى المهاجرين من أهل مجريط ، فنذكر منهم أسرة اشتهرت باسم « بني الحاج » ، كان من أولهم أبو العباس يحيى ابن محمد بن فرج ، أخذ في بلده عن يوسف بن عبد عبد الرحمن الحمادي الذي سبق أن تحدثنا عنه ، وكان من أهل المعرفة بالأدب واللغة ، ويبدو أنه انتقل من بلده بعد أن احتلته جيوش قشتالة ، فاستقر بقرطبة حيث اشتغل بالتدريس حتى وفاته سنة ٥١٥ (١١٢١ م) في أيام السلطان المرابطي علي بن يوسف ابن تاشفين(٢) .

ومن هذه الأسرة نفسها أبو الحسن عبد الرحمن بن عيسى المعروف بابن الحاج ، وكان يلقب بالقرطبي لسكناه هذه العاصمة ، وبالمجريطي اشارة الى أصلة ، وكان عالما بالقراءات وسائر العلوم القرآنية ، وكان مولده بمجريط سنة ٤٧٣ (١٠٨١) ، ووفاته بقرطبة سنة ٥٤١ (١١٤٧) في أول عهد الموحدين بالأندلس(٣) .

ومنها أيضا أبو العباس يحيى بن عبد الرحمن بن عيسى ، وهو ابن المتقدم ذكره ، وكان قد أخذ عن أبيه علم القراءات فتبحر فيه ، كذلك تلمذ على كثير من العلماء من أشهرهم الفقيه الأصولي الكبير أبو بكر بن العربي الاشبيلي ، وولي القضاء في عدة عواصم أندلسية منها جيان ومرسية وغرناطة ، ثم اقدم على قضاء قرطبة

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ١٣٢٧ ، ياقوت : معجم البلدان ٢٨٨/٧ ــ ٢٨٩
(٢) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ١٣٦٨ .
(٣) ابن سعيد : المغرب ٤٣/٢ ــ ٤٤

بعد وفاة الفيلسوف الأندلسى الكبير أبى الوليد ابن رشد ، وتخرج على يديه عدد كبير من أعظم أساتذة الأندلس وشيوخها ، وكان مولده سنة ٥١٩ (١١٢٥ م) ، وتوفى سنة ٥٩٨ (١١٠٢) (١) .

ومن زملاء يحيى بن عبد الرحمن فى الدراسة عالم آخر مجريطي أيضا غير أنه استقر بمالقة هو غريبب بن خلف بن قاسم الخطيب القيسي ، فقد روى كذلك عن أبى بكر بن العربى . وله عدة كتب في مسائل مختلفة من علوم الدين والفقه منها رسالة « البيان فيمن أفطر فى يوم من أيام رمضان » . ويذكر ابن الأبار البلنسى انه تلمذ عليه وأخذ عنه(٢) .

ونضيف الى هؤلاء شخصية أديب كاتب شاعر من مجريط لم يحفظ لنا ابن سعيد الا كنيته ونسبته : «أبا عبد الله المجريطى» ، ويقول فى وصفه انه كان كثير التقلب من حياة المرح واللهو الى ضدها من الزهد والعبادة : « تارة هو أويس القرنى وآونة ابراهيم الموصلى » . ويذكر من شعره أبياتا يقول فيها :

لا عذر أوضح من أسيل واضح
صقل الشباب أديمه المشبوبا
لما نظرت الى الفرند بصفحه
ابصرته بدم القلوب خضيبا
ورمى عن اللحظ العليل الى الحشا
سهم المنون فكان فيه مصيبا
هلا سألت لحاظه يوم النوى
هل غادرت لك فى الحياة نصيبا (٣)

---

(١) ابن الابار : التكملة ، رقم ٢٠٥٨.

(٢) نفس المرجع ، رقم ١٩٦١ من طبعة كوديراوص ٥٢٤ من طبعة الاركون وبالنثيا، وانظر كذلك ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ص ٥١٢ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ٢/٤٣ ــ ٤٤

على أن أشهر من أنجبته مجريط على الاطلاق من علمائها هو الطبيب الرياضى الفلكى المشهور أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى الذى يعتبر من مفاخر الأندلس عامة ومدريد بصفة خاصة . ولد مسلمة ونشأ بمجريط ، ولكنه سرعان ما انتقل الى قرطبة التى كانت قد أصبحت فى أيام الخليفة العالم الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر أهم مراكز العلم بالغرب الاسلامى كله ، ورحل الى الشرق حيث جمع ذخيرة طيبة من التراث العلمى فى مختلف بلدان الشرق ، ثم عاد الى الأندلس ، فاستقر فى قرطبة حتى وفاته سنة ٣٩٨ (١٠٠٨م) قبيل نشوب الفتنة فى قرطبة .

وكان مسلمة قد شغف بعلوم الاغريق التى نقلت الى العربية . فأقبل على كتاب المجسطى فى الفلك لبطليموس ، ثم ألف فى أرصاد الكواكب ، فاختصر زيج (أى تقويم) البتانى وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى وصرف تاريخه الفارسى الى التاريخ العربى وبدأه من تاريخ الهجرة النبوية كما ألحق به زيادات وجداول حسنة ، كذلك ألف كتابا فى « تمام علم العدد » أكمل به كتاب ثابت بن قرة وغير ذلك من الكتب التى لم يبق من أصولها العربية الا قليل ، وان كانت معروفة فى العالم الأوربى كله بفضل الترجمات اللاتينية التى وضعت لها فى العصور الوسطى ثم طبعت فى عصر النهضة . ومن هذه الكتب رسالته فى الأسطرلاب التى ترجمها فى طليطلة جوان الاشبيلى Juan Hispalense ، ثم ترجمته لكتاب الفلك لبطليموس ، وقد نقلها من العربية الى اللاتينية هرمان سيكوندوس Herman Secundus فى تولوز فى سنة ١١٤٣ ، وطبعت هذه الترجمة فى بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ ثم فى البندقية سنة ١٥٥٨ . أما تعديله لزيج الخوارزمى فقد نقله الى اللاتينية فى سنة ١١٢٦ عالم انجليزى كان قد قدم الى طليطلة لكى يأخذ العلم على مدرسة التراجمة التى كانت تعمل فيها على

نقل العلوم العربية الى اللاتينية أو الاسبانية ، ويعرف هذا العالم الانجليزى باسم أديلارد دىباث Adelard de Bath ، وكانت هـــذه المدرسة الطليطلية التى ضمت رجالا ينتمون الى الأديان الثلاثة : مســلمين ومسيحيين ويهودا من أعظم المراكز الثقــافية الأوربية التى آتت ثمراتها بعد ذلك فى عصر النهضة ، وكانت تقوم بترجمـــة أمهات الـكتب العربيـــة فى العلوم والطب والفلسفة واللاهوت والأدب الى اللاتينية وعن طريقها تلمذت أوربا على عرب الأندلس ، ونحن نرى فى قدوم هذا العالم الانجليزى الى طليطلة مثلا ماديا حيا على مدى ما أدته حضارة العرب السمحة الـكريمة من خدمات جليلة الى أوربا .

ولمسلمة المجريطى كتابان آخران : «رتبة الحكيم» فى الكيمياء و «غاية الحكيم» فى السحر ، وهما من الـكتب التى أشاد بهـا المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وقد ترجم الـكتاب الثانى منهما الى الاسبانية فى سنة ١٢٥٢ بتكليف من ملك قشتالة الفونســو العاشر المعروف بلقب العالم Alfonso X el Sabio تحت عنوان «أبقراط» ، أما النص العربى للـكتاب فقد تأخر التعريف به حتى سنة ١٩٣٣ حينما نشره المستشرق الألمـانى ريتر فى ليبزج .

وينسب الى مسلمة المجريطى كذلك ادخال رســائل اخوان الصفا الى الأندلس ، وقد كان لهذه الرسائل أثر كبير فى النهوض بالفلسفة والعلوم بالأندلس بصفة ملحوظة .

كذلك يعتبر مسلمة خالق مدرسة علمية رياضية طبيـة فى الأندلس . ويقول صاعد الطليطلى فى ذلك : « وقد انجب تلاميذ جلة لم ينجب عالم بالأندلس مثلهم » ، ثم يذكر منهم ابن الســمح وابن الصفار والزهراوى الجراح والكرمانى وابن خلدون وغيرهم (١)

(١) فى ترجمة مسلمة المجريطى أنظر : دائرة المعارف الاسلامية ٣/١٠٠-١٠١، صاعد الطليطلى طبقات الامم ص ٩٤ ، بروكلمان : تاريخ الآداب العربية ١/٢٣٤ =

ولنعرض الآن لطائفة من العلماء هاجروا من بلادهم في الأندلس أو المغرب الى مجريط واتخذوها مقرا لهم لفترة طويلة أو قصيرة، ولذلك لأن موقع مجريط باعتبارها ثغرا من ثغور الدولة الاسلامية ومحلا للرباط والجهاد كان مما دفع عددا من أهل العلم والاحتساب الى النزول بها لحماية هذا الثغر الجليل أو الموت دونه .

ومن أول هؤلاء الفقيه القرطبي ابراهيم بن محمد بن باز المعروف بابن القزاز ، كان عالما ورعا سمع من يحيى بن يحيى المصمودى القرطبى كبير فقهاء الأندلس وتلميذ الامام مالك بن أنس ثم رحل الى مصر فتلقى العلم على جلة فقهائها من أمثال أبي الطاهر أحمد بن أبى السرح ويحيى بن بكير ، وحينما عاد ابن باز الى بلاده تبوأ فيها أرفع المناصب ، فكان من الفقهاء المشاورين المقدمين فى الفتيا ، على انه آثر حياة الجهاد ، فخرج الى مجريط للرباط ومعه خمسة من تلاميذه القرطبيين منهم ابنه أحمد وأبو عبد الله محمد بن عبد البر وأحمد بن خالد وأحمد بن أبى زرعة . ولكنه مرض فى الطريق الى مجريط ، فحمله تلاميذه الى طليطلة حيث توفى ودفن بها سنة ٢٧٤ (٨٨٧) (١) .

ومن هؤلاء العلماء المرابطين محمد بن حنين الاستجى « نسبة الى استجة Ecija : بلد يقع الى الجنوب الغربى من قرطبة على الطريق بينها وبين اشبيلية) ، درس فى قرطبة مع أستاذين من أشهر فقهاء الأندلس فى القرن الثالث الهجرى ، هما : عبيدالله ابن يحيى بن يحيى ومحمد بن عمر بن لبابة ، وكان هذا الأخير

سانتشت بيريث : الرياضيون العرب ، رقم ٨٤ ، ملياس فاليكروسا : دراسات حول تاريخ العلوم فى اسبانيا ص ٢٧-٢٨ ، جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة للدكتور حسين مؤنس ص ٤٤٨-٤٤٩ ، أوليفر أسين : تاريخ اسم مدريد ص ٢٥٣ .

(١) ابن الأبار : التكملة ، تحقيق ابن أبى شنب والفريد بيل طبعة الجزائر رقم ٢ ، وابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٠ .

يكثر من الثناء عليه والاشادة به ، وكانت لمحمد بن حنين رحلة أدى فيهــا فريضة الحج ، ثم عاد الى الأندلس فآثر المسير الى الثغر للرباط والجهاد ، وكانت وفاته فى مجريط فى أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع(١) .

ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف بن سلمون التجيبى ، كان من أقليش Uclés (الواقعــة الى الجنوب الشرقى من مجريط فى عمل كونكة Cuenca وكانت من الثغور التى أحدثها المسلمون) ، وولد فى سنة ٣١٣ (٩٢٥) ، ودرس فى منطقــة الثغر حيث تلمذ على علماء من طليطلة ومجريط نفســها نذكر من بينهم ســعيد بن سالم المجريطى الذى سلفت الاشارة اليه وأبى ميمونة دراس بن اسماعيل الفاسى نزيل مجريط ووهب بن عيسى الطليطلى ، ثم رحل الى المشرق فحج وسمع بمكة من أبى بكر الآجرى صاحب كتاب الشريعة ، وأخذ بمصر عن ابن شعبان القرطبى الذى كان أندلسى الأصل . وان كان قد استقر بمصر ووصل بهــا الى رياسة المدرسة المالكية فى أيام الاخشيديين . ويبدو أن ابن سلمون المذكور كان كثير التردد على مجريط بعــد عودته الى الأندلس ، فقد كان تلاميذ الثغر وطلبته يتوافدون عليه للسماع منه بمجريط وكانت وفاة ابن سلمون فى أواخر القرن الرابع الهجرى بعد حياة أخلصها للعلم والجهاد . وكان العالم الأندلسى الكبير ابن الفرضى يعتبر من عداد أصحابه والآخذين عنه (٢) .

ومنهم موسى بن قاسم بن خضر الطليطلى الذى كان من كبار فقهاء الثغر ومحدثيه ، ويظهر أنه انتقل الى مجريط للجهاد بهــا خلال الفترة التى سبقت سقوطها فى أيدى المسيحيين ، ويذكر

(١) ابن الفرضى - تاريخ ، رقم ١٢٨١

(٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ، رقم ٨٠٩ .

انه استشهد فى غزاه فحص المدينة سنة ٤٤٣ (١٠٥١) ، وهذا المكان يقع فى جنوب شرقى مجريط ملتقى نهرى شرنبة والمانثانارس الذى تقع مجريط على ضفته ، ومازال ذلك المكان يحمل اسمه العربى محرفا بعض الشىء حتى اليوم اذ يطلق عليه اسم Salmedina .

أما هذه الغزوة فلا نعلم ان كانت فى احدى حملات النصارى الى طليطلة وثغورها قبل أن تسقط تلك العاصمة فى أيديهم بنحو ثلاثين سنة ، أو فى معركة من المعارك التى اشتبك فيهما يحيى بن اسماعيل بن ذى النون ملك طليطلة وأحمد المقتدر بن سليمان المستعين بن هود ملك سرقسطة ، وكانت الفتن والحروب بين هؤلاء الأمراء المشئومين من أجل تنافسهم على ملك بلاد الأندلس هو شر ما أصاب هذه البلاد فى القرن الخامس ، وهو الذى جر أخيرا سقوط طليطلة فى أيدى القشتاليين هى وما حفها من مدن وقلاع كان من جملتها مجريط(١) .

وآخر من نسمع عنهم من الأندلسيين الذين حضرتهم وفاتهم فى مجريط عالم طليطلى آخر يدعى أبا الوليد يونس بن شوقة ، وهذا الاسم الأخير نبز اسبانى قديم El Chueco ومعناه « الأعور » ، وهو يدل على أن أصل هذا العالم من مولدى الأندلس . وكان من تلاميذ الامام القرطبى الكبير أبى عمر بن عبد البر وغيره من الفقهاء والمحدثين ، وكان خيرا فاضلا تغلب عليه رواية الحديث الشريف والزهد وقصص العبادة والصالحين مما كان يعرف فى الأندلس باسم «الرقائق» كما كان واسع العلم بمسائل الفقه ويقول ابن بشكوال فى ترجمته انه كان بارا باخوانه جميل المعاشرة لهم من احسن الناس خلقا وأكثرهم بشاشة وانه كان لا يخرج من منزله الا لأمر مؤكد ، وتوفى فى ربيع سنة ٤٧٤ (أغسطس سنة ١٠٨١)

---

(٢) ابن بشكوال : الصلة رقم ١٢١٩

أى قبل أن تسقط مجريط فى يد الفونسو السادس بعامين اثنين . ولسنا نعلم ما اذا كان قد مات على فراشه أو استشهد فى احدى حملات النصارى على المدينة ، ولاشك فى أن ضغطهم على كل ثغور هذه المنطقة كان قد اشتدت وطأته خلال هذه السنوات(١).

وأذا كانت مجريط من الثغور التى أغرت كثيرا من الأندلسيين من أهل الرباط والاحتساب بالقدوم اليها من أجل الذب عن الاسلام والدفاع عن أطرافه ، فان ذلك الهدف ماكان ليفوت نفرا من رجال المغرب الأقصى الذى كان منذ انتظامه فى سلك العالم العربى من أجل معاقل الاسلام وأعظم شعوبه حماسا لرفع رايته والحفاظ على أطرافه ، ولا عجب فقد كان لأهل المغرب أعظم الفضل فى ضم الأندلس الى رقعة العالم العربى منذ وطئت قدما طارق بن زياد النفزى أرض هذه البلاد فى سنة ٩٢ (٧١١ م) ، فقد كان كثير من المغاربة يفدون الى الأندلس برسم الجهاد والرباط ، وذلك قبل أن يضطلع المغرب وحده بانقاذ مابقى من التراث الاسلامى فى هذه البلاد على يد البطل الصحراوى يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٧٩ (١٠٨٦ م) .

ونحن نجد من مظاهر ذلك وفود اثنين من فضلاء المغرب الى مجريط خلال القرن الرابع الهجرى . أما أولهما فلا نعرف الا اسمه الأول وهو جساس السجلماسى المعروف بالزاهد وكانت له رحلة الى المشرق ، ثم عاد الى بلاده ، ولكنه آثر أن يجوز الى هذا الثغر القصى من ثغور المسلمين ، ويبدو أن اقامته امتدت طويلا فى مجريط ، وأهم ماينسب اليه هو اذاعته لكتاب فى « الزهد » ألفه متصوف أندلسى يدعى يمن بن رزق التطيلى (نسبة الى تطيلة Tudela من مدن الثغر الأقصى قريبة من

---

(١) نفس المرجع ، رقم ٢٤٠٠.

سرقسطة) . ويبدو ان هذا الكتاب لم يكن مما يرضى عنه أهل السنة المتشددون سواء من الأندلس أو افريقية ، اذ اتفق فقهاء القطرين على تحريم قراءته ، وربما كان يتضمن من مظاهر التطرف والغلو أكثر مما يوحى به عنوانه ، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر الزاهد السجلماسى فى نشره وروايته بمجريط ، وتناقله هناك عنه كثير ممن كانوا يترددون على الثغر من عبـــاد ونساك ومرابطين سواء من أهل الأندلس أو من الغرباء الذين ألقوا برحالهم فى هذه المدينة ، وكان من رواة هذا الكتاب عبـــد الرحمن بن خلف ابن سلمون التجيبى الأقليشى نزيل مجريط الذى سبق أن تحدثنا عنـــه (١) .

وفى وسعنا أن نستخلص ممـــا ذكره المؤرخون حول حياة جساس السجلماسى أنه كانت فى مجريط جمـــاعات من غـــلاة الصوفية آثرت أن تفر الى هذا الثغر القصى بعقائدها التى لم تكن تتلاءم مع الايمان السنى الصريح الجارى على مذهب أهل السلف مما كانت تدين به الكثرة الغالبة من الشعب الأندلسى ومما كان الخروج عليه يعتبر بدعة جديرة بأن يتعقبها الفقهاء الأندلسيون المتشددون .

وأما الثانى فانه أشهر من سابقه صيتا وأرفع مكانة ، فهـــو أبو ميمونة دراس بن اسماعيل الفاسى الذى يعتبر من أعظم من أخرجته فاس من الأئمة والعلماء ، وفى حياة دراس هذا مثل وعبرة فقد أنفقها كلها بين علم ورباط ، وله رحلة الى المشرق حج فيها ، ثم أخذ العلم بمصر ، فلقى بالاسكندرية عالمها وفقيهها ابن أبى مطر وسمع منه كتاب ابن المواز ، ثم استقر زمنا فى أفريقية «تونس» حيث حدث بهذا الكتاب الذى يعتبر من ثمرات المدرسة المصرية

(١) أنظر عن جساس هذا مقالى عن « كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر الاندلسى» ــ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ــ المجلد الرابع سنة ١٩٥٦ ص ٨٢ حاشية (١) .

فى الفقه المالكى ، وعنه أخذه هناك الفقيه ابن القابسى الكفيف ومن القيروان أتى بكتاب « المدونة الكبرى » لفقيهها المشهور عبد السلام بن سعيد الشهير بسحنون ، فكان أول من أدخله بفاس عاصمة المغرب ، ولم يكتف بما نشر من علم ، وبما وثق من علائق فى ميدان الثقافة بين شعوب الشرق والغرب ، اذ جاز أيضا الى الأندلس ، ويقول ابن الفرضى عنه انه « تكرر فيها طالبا ومجاهدا ، فكان مترددا فى الثغر ، وسمع منه غير واحد » . وأخيرا عاد الى بلده فاس ، فتوفى هناك سنة ٣٥٧ (٩٦٧) ، ودفن عند باب الجديد من أبواب عدوة القرويين فى سورها الغربى .

وقد كان ثغر مجريط من الثغور الأندلسية التى تردد عليها هذا العالم المجاهد الذى ضرب للمسلمين فى أيامه مثلا صالحا وقدوة حسنة ، فنحن نراه ينقل علم مصر الى القيروان «تونس» وعلم القيروان الى فاس «المغرب» وعلم فاس الى أقصى ثغور الأندلس على مشارف المملكة المسيحية فى مجريط ، ثم هو الى جانب ذلك مرابط يجاهد فى سبيل الله بيده ولسانه ، تغمده الله برحمته (١) .

---

(١) فى ترجمة أبى ميمونة أنظر ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٤٣٢ ، وابن أبى زرع : روض القرطاس ١/١٥٤ ، السلاوى الاستقصا ١/٢٠٠ . وقد ذكر ابن أبى زرع والسلاوى فى أحد قوليه أن وفاته كانت فى سنة ٣٦٢ ولكن هذا الأخير رجح التاريخ الذى أوردناه وهو ٣٥٧ . أما الباب الذى دفن عنده أبو ميمونة من أبواب فاس فقد سماه ابن الفرضى « باب الجيزين » ، وظننا فى أول الامر أن هذا اللفظ تحريف للباب المعروف اليوم باسم « باب الجيسة » المنسوب الى عجيسة بن دوناس بن حمامة المغراوى (أنظر روض القرطاس ١/٥٦ ، ١٧٤) ولكنا استبعدنا ذلك اذ أن هذا الباب قد تأخر بناؤه الى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ورجحنا كونه « باب الجديد » الذى ذكر ابن أبى زرع أنه يخرج منه الى وادى فاس والى جبل فلزاز (روض القرطاس ١/٥٥)

ونختم هذه السلسلة من رجال مجريط وعلمائها بالاشارة الى شخصيتين من معالم الثقـــافة الأندلسية لم تكن مجريط مسقط رأسيهما وان كان من الممكن اعتبارهما منها الى حد ما ، فقد كانا من بلدة مجاورة تتبع الآن عمل مدريد وتربطها بهـــذه العاصمة تاريخ مشترك وصلة وثيقة ، هى طلمنكة Talamanca .

فقد رأينا عند حديثنا عن مولد مجريط أن طلمنكة كانت قرينة لها ، أنشأها العرب أيضا فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، بل فى نفس الوقت الذى أسست فيه عاصمة اسبانيا المستقبلة ولنفس الأهداف العسكرية التى رمى اليهـا ذلك الأمير الأندلسى العظيم . وسرعان ماتحولت هذه القرية الضئيلة المغمورة على أيام الرومان الى مدينة حصينة من أجل مدن الثغور فى ظل المسلمين وكانت تقرن دائما بمجريط ، وان اختلف حظ البلدين بعد ذلك ، فاذا بمجريط تنمو وتزداد عمرانا وترتفع مكانة حتى تتحول الى عاصمة اسبانيا كلها ، بينما تقفر طلمنكة ويحل بربوعها الخراب حتى تعود اليوم كما كانت قبل العرب : قرية متواضعة تجثم فى انكسار حزين على مجرى نهر شرنبة ، لا يسكنها اليوم الا بضعة مئات من الناس .

وكانت طلمنكة التى تقع الى شمال مجريط منحرفة قليلا نحو الشرق على بعد ثمانية وأربعين كيلو مترا منهـــا هى آخر الثغور الاسلامية المطلة على جبـال وادى الرمل ، فى موقع استراتيجى عظيم الخطر ، اذ كانت تتحكم فى الطرق التى تربط طليطلة ومجريط ووادى الحجارة بما وراء جبال وادى الرمل من حدود اسبانيـا المسيحية ، فقد كان يمر بها الطريق الرئيسى الذى يخترق هذه الجبال عبر الفج الضيق الذى مازال حتى اليوم يدعى « فج وادى الرمل Puerto de Guadarrama » . ولهذا فان كل حملة كان يوجهها المسلمون فى هذه المنطقة الى اسـبانيا المسيحية أو

المسيحيون الى الأندلس كانت لاتجد بدأ من المرور بطلمنكة . ولهذا السبب نفسه تضاءلت قيمة هذا الثغر بعد ذلك حينما بسط المسيحيون سلطانهم على طليطلة والبلاد التابعة لها ؛ اذ لم تعد ثغراً ولا قاعدة عسكرية لها وزن أو خطر ، لاسيما وأن هذا الطريق الذي يخترق جبال وادى الرمل قد هجر فيما بعد وتحول الناس فى انتقالهم بين شمال اسبانيا وجنوبها الى طرق أخرى كان أهمها وأكبرها هو المار بمدريد(١) .

أما طلمنكة العربية فقد أخرجت عدداً من كبار العلماء يذكر منهم ابن سعيد المغربى رياضياً كيميائياً شاعراً يدعى غانم بن الاسقطير الطلمنكى ، وكان كما يبدو من اسمه من أصل مولد ؛ اذ أن لفظ «الاسقطير» هو الرسم العربى لاسم مازال شائعاً حتى اليوم فى اسبانيا هو Escudero (ومعناه «حامل الدرع» ، وكان يطلق على التابع الذى يرافق أحد الفرسان) ، وكان على صلة بابن ذى النون ملك طليطلة فى عصر الطوائف ، ويبدو لنا انه كان من تلاميذ تلك المدرسة الرياضية العلمية التى ازدهرت فى طليطلة والتى وضع دعائمها مسلمة المجريطى(٢) .

على أن أكبر علماء طلمنكة وأشهرهم هو أبو عمر الطلمنكى(٣) الذى ولد فى سنة ٣٤٠ (٩٥١) ، واسمه الكامل هو أحمد بن

---

(١) حول طلمنكة وماضيها العربى أنظر مقال المؤرخ الأثرى الاسبانى ليوبولدو توريس بلباس : طلمنكة وطريق وادى شرنبة المهجور ، مجلة المجمع التاريخى الملكى بمدريد سنة ١٩٦٠ ، المجلد ١٤٦ ، ص ٢٣٥-٢٦٦ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ٤٢/٢ .

(٣) فى ترجمة الطلمنكى راجع ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٩٠ ، الضبى : بغية الملتمس ، رقم ٣٤٩ ، أسين بلاثيوس : ابن حزم القرطبى ١٠٠/١ ، بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ١١٨-١١٩ ، وأوليفر أسين : تاريخ مدريد ص ٢٤٨-٢٥٢ .

عبد الله بن لب بن يحيى بن محمد بن قرلمان المعافرى . ويبدو أنه كان من أصل مولد كذلك اذ نجد فى سلسلة نسبه اثنين من أجداده يحملان اسمين من أصل لاتينى : لب Lope وقرلمان Carloman وقد انتقل أبو عمر فى شبابه الى قرطبة وأخذ عن كبار علمائها من أمثال ابن مفرج القاضى وأبى محمد الباجى وأبى بكر الزبيدى الاشبيلى ، ثم رحل الى المشرق فحج ولقى علماء مكة والمدينة والقاهرة ودمياط والقيروان وغيرها من عواصم المشرق والمغرب ، وعاد الى الأندلس بعلم كثير ، فتولى الامامة بقرطبة وتلمذ بها عليه كثير من علمائها ، ثم خرج بعد الفتنة الى سرقسطة فقضى بها سنوات منصرفا الى التدريس ، ولكنه تعرض لمحنة شديدة سنعرض لها ببعض التفصيل ، وأخيرا عاد الى بلده طلمنكة حيث قضى آخر سنى حياته حتى توفى سنة ٤٢٩ (١٠٣٨ م) .

وكان أهم ما برع فيه أبو عمر الطلمنكى علوم القرآن ، فقد أتقن قراءاته وأحكامه وناسخهومنسوخه ومعانيه ، ولهذا فان مترجميه يتبعون اسمه دائما بلقب «المقرىء» ، كذلك كان عالما بالحديث الشريف ونقله وروايته وضبطه ومعرفة رجاله حافظا للسنن جامعا لها عارفا بأصول الديانات .

وكان متمسكا بتعاليم السلف وبالايمان السنى الصحيح شديد المقت لكل ما تشتم منه رائحة البدعة ، ولهذا فانه كان عنيفا على أهل الأهواء صارما فى التنديد بهم ، مما جعل بعض فقهاء سرقسطة يتظاهرون عليه ويتهمونه بأنه خارجى يبيح سفك دماء المسلمين ، وقد سجل عليه الشهادة فى ذلك خمسة عشر فقيها من فقهاء سرقسطة اجتمعوا فى دار محمد بن رافع بن غريب . وكان لهذا الاتهام ضجة كبيرة فى الأندلس ، وقدم أبو عمر للمحاكمة ، ودافع عنه بعض محبيه والمعجبين به ، وأخيرا حكم

قاضي ثغر قسنطينة محمد بن عبد الله بن فرتون ببراءته وبتحامل الضالعين عليه ، وكان ذلك في سنة ٤٢٥ (١٠٣٤) .

ويظهر أن أبا عمر الطلمنكي كان شديد التعلق ببلده ومسقط رأسه ، اذ أنه بعد أن جاب العالم الاسلامي كله ثم ذرع الأندلس حيث طار صيته وتلمذت عليه أجيال من علمائها ـ يكفي أن نذكر منهم المفكر الأندلسي العظيم ابن حزم والمحدث أبا عمر بن عبد البر ـ اذا بنا نراه يؤثر أن يقضي ما بقي من عمره في طلمنكة حيث يلتف به تلاميذ الثغر الأدنى كله ولا سيما طلبة مجريط . وعلى الرغم من كبر سنه في ذلك الوقت فانه لم ينصرف عن التدريس والافادة حتى رمقه الأخير . ويذكر عنه أحد تلاميذه وهو عيسى بن محمد الحجاري (من وادي الحجارة) أنه قال :

« خرج علينا أبو عمر الطلمنكي يوما ونحن نقرأ عليه ، فقال : اقرأوا وأكثروا ، فاني لا أتجاوز هذا العام ! فقلنا له : ولم يرحمك الله ؟ فقال : رأيت البارحة في منامي منشدا ينشدني :

اغتنموا البر بشيخ ثوى ترحمه السوقة والصيد
قد ختم العمر بعيد مضى ليس له من بعده عيد

قال : فتوفي في هذا العام » .

ويبدو لنا أن مجريط وطلمنكة قد أصبحتا في عصرهما الاسلامي مركزين لمدارس فقهية أصيلة متميزة ، من جنس تلك المدارس الكثيرة التي نراها في الأندلس مشتغلة بفروع الفقه معتدة بالتقليد المحلي المتوارث المعروف باسم « العمل » ، أي ما اصطلح فقهاء موضع من المواضع على الأخذ به ، وهو مبدأ قاسه أهل الأندلس على « عمل أهل المدينة » الذي أعتبر في الفقه المالكي أصلا يضاف الى الأصول الأربعة الأخرى وهي القرآن والسنة والقياس والاجماع . وكان من آثار ذلك ما اتفق عليه

فقهـاء الأندلس من الاعتداد بعمل أهـل قرطبة أى العرف الذى جرى عليه علماء العاصمة الأندلسية الكبرى . وقد قيست على ذلك أعمال أخرى أشهرها فى بلاد المغرب « عمل أهـل فاس » ، كذلك أصبح فقهـاء كل اقليم من أقاليم الأندلس يعتدون بالعمل الجـارى بينهم ويعتبرونه عرفا له قوة القـانون . ولـكن بعض المجتهدين من فقهاء الأندلس رأوا فى هذه الأعمال خطرا قد يؤدى بالفقه الاسلامى الى الجمود ، ومن هنا هاجموها وحملوا عليهـا حملة شديدة . ونحن نرى من مظاهر ذلك النقد الشـديد الذى وجهه الفقيه المتحرر أبو بكر بن العربى الاشبيلى لأمثـال تلك المدارس الفقهية فى كتابه « العواصم من القواصم » حيث يقول :

« وجعل الخلف منهم (أى من فقهاء الأندلس) يتبعون السلف حتى آلت الحال الى أن ينظر فى قول مالك وكبراء أصحابه ويقال قد قال فى هذه المسألة أهل قرطبة وأهل طلمنكة وأهـل طلبيرة (فى الأصل : صلبوة وهو خطأ) وأهل طليطلة . وصـار الصبى اذا عقل وسلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله تعالى ثم نقلوه الى الأدب ثم الى الموطأ ثم الى المـدونة ثم الى وثائق ابن العطار ثم الى أحكام ابن سهل ، ثم يقال : قال فلان المجريطى وابن مغيث ـ لا أغاث الله ثراه ! ـ فيرجع القهقرى ، ولا يزال الى ورا . ولولا أن الله تعالى من بطائفة تفرقت فى ديار العلم وجاءت بلباب منـه كالقاضى أبى الوليد الباجى وأبى محمد الأصيلى ، فرشوا ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطروا أنفاس الأمة الذفرة لكان الدين قد ذهب » (١) .

---

(١) نقل هذا النص عن ابن العربى الاشبيلى فى ترجمة أبى الوليد الباجى ابن فرحون فى كتاب « الديبـاج المذهب » ص ١٢١ وكذلك السلاوى فى كتـاب الاستقصا ١/١٤١ .

فنحن نرى من هذا النص كيف يحمل الفقيه الأندلسى المشهور على هذه «الأعمال» التقليدية ويعتبرها من مظاهر الجمود ، وهو يختص بالذكر منها بعد قرطبة عمل أهل طلمنكة وطلبيرة وطليطلة ؛ واشارته الى ابن مغيث الطليطلى صاحب كتاب «المقنع فى الوثائق» صريحة لا مواربة فيها . أما ماذكره عن طلبيرة وطلمنكة ومجريط فانه لايصرح بأسماء فقهائها الذين أصبح عملهم أساسا من أسس الفقه المالكى الأندلسى فى اقليمهم ، ولكنا نستخلص من هذا أن مجريط وطلمنكة كان لهما «عمل» فقهى محترم على الأقل فيهما وفيما يجاورهما من بلاد الثغور .

***

وقد نوه الجغرافيون والمؤرخون المسلمون قديما بمجريط ، فتحدث عنها الشريف الادريسى مرتين فى جغرافيته ، فقال انها تقع فى اقليم الشارات (بتشديد الراء) ، وهو تعريب لفظ Sierras الاسبانى بمعنى سلسلة الجبال ، يقصد جبال وادى الرمل وذكرها فى موضع آخر فقال انها «مدينة صغيرة وقلعة منيعة معمورة ، وكان لها فى زمن الاسلام مسجد جامع وخطبة قائمة»(١) ، ووصفها كذلك صاحب كتاب «ذكر بلاد الأندلس وفضلها وصفتها وذكر أصقاعها» فى نص سبق أن أوردنا خلاصته . وأفرد لها ياقوت فى «معجم البلدان» مادتين أشرنا اليهما أيضا ، وأما ابن سعيد المغربى فان لما كتبه عنها على الرغم من ايجازه وقلة مادته قيمة جغرافية خاصة ، اذ هو يضعها فى الاطار العام الذى وضعه لجغرافية الأندلس الأدبية مؤلف من نفس هذه الجهات هو الحجارى «نسبة الى وادى الحجارة» ، وهذا هو

---

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٧٥ ، ١٨٨ .

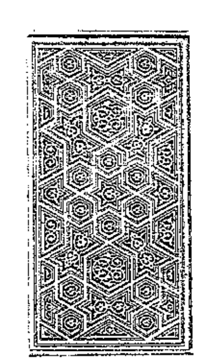
مايحملنا على أن نشير الى ذلك التقسيم الذى أورده ابن سعيد نقلا عن الحجارى المذكور لأجزاء مملكة طليطلة ، التى أفرد لهـا الكتاب الأول من كتب «الشفاه اللعس فى حلى موسطة الأندلس»، وكتاب طليطلة المذكور يحمل عنوان «النفحة المندلية فى حلى المملكة الطليطلية» . ثم يقسم ابن سعيد هذا الكتاب بدوره الى ثمانية كتب هى :

١ ــ البدور المكملة فى حلى مدينة طليطلة (Toledo)
٢ ــ الطرس المرقش فى حلى قرية وقش (Huecas)
٣ ــ لمح العبيرة فى حلى مدينة طلبيرة (Talavera)
٤ ــ الغرارة فى حلى مدينة وادى الحجارة (Guadalajara)
٥ ــ صفقة الرباح فى حلى قلعة رباح (Calatrava)
٦ ــ نقش السكة فى حلى مدينة طلمنكة (Talamanca)
٧ ــ التغبيط فى حلى مدينة مجربط (Madrid)
٨ ــ السعادة فى حلى قرية مكادة (Maqueda)

ولعل أوفى ما جاءنا فى وصف مجريط هو ما كتبه الجغرافى السبتى ابن عبد المنعم الحميرى فى كتاب « الروض المعطار » ، وقد نقلنا جملته فيما سبق . هذا فضلا عن الأخبار التاريخية التى وافانا بها ابن حيان وابن عذارى وغيرهما من مؤرخى الأندلس والمغرب وقد استصفيناه فى هذه الدراسة .

---

(١) جاء هذا العنوان فى طبعة المغرب « بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ٢/٧ » هكذا « لمح العبرة فى حلى مدينة طيبرة » ، ونظن أن الصواب ماذكرنا اذ ليس هناك فى الاندلس مدينة تحمل اسم « طيبرة » ، ثم ان التقسيم الجغرافى يقتضى أن يكون الكلام هنا عن مدينة طلبيرة ، وقد قمنا بقراءة لفظ « العبيرة » هكذا بالتصغير حتى تستقيم السجعة مع اسم طلبيرة المذكور .



خاتمة

رأينا في الصفحات السابقة صورا من حياة مجريط .... مدريد العربية التي لم تكن كما ظن بعض الباحثين سواء منهم العرب أو الأوربيون بلدا ضئيل القيمة في أيام الحكم الاسلامي لشبه الجزيرة الأندلسية ، بل كانت من أهم ثغور الأندلس ومدائنها الجليلة منذ أن اضطلع ببنائها الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن الذي أقبل في منتصف القرن الثالث الهجري « التاسع الميلادي » على انشاء نطاق من كبريات الحصون في تلك المنطقة الوسطى من هضبة شبه الجزيرة على السفوح الجنوبية لجبال وادي الرمل ، متنبها ببعد نظره ونفاذ بصيرته الى مالها من قيمة عسكرية كبرى . على أن الحياة ماكانت لتنتظم في مدريد بغير ذلك النظام العبقري الذي أجرى به العرب أنهارا من الماء العذب في باطن أرضها لتستقي منه منازلها وحدائقها والمروج المحيطة بأسوارها ، ولولا هذا النظام لما طمعت مدريد في أن تصبح في يوم من الأيام عاصمة للقطر الاسباني كله . والى هذا النظام نفسه ترجع تسمية المدينة باسم « مجريط ... » المدينة ذات المجاري الكثيرة من المياه الجوفية العذبة ... ذلك الاسم الذي نجد فيه جماع تاريخ العاصمة الاسبانية وسر وجودها .

وقد رأينا مما عرضناه كيف كانت مجريط على عهد المسلمين ثغرا يقصده المجاهدون وتتوجه منه الحملات الى اسبانيا المسيحية ، وكيف كان أمراء الأندلس وخلفاؤها يحرصون على أن يختاروا لحكمه رجالا لهم مركزهم وخطرهم ، بل اننا رأينا كيف حاول أحد المغامرين الأندلسيين أن يعلن نفسه خليفة فى مجريط ولو تم له ذلك لرأينا مجريط قاعدة للأندلس كلها قبل أن تصبح عاصمة لاسانيا بأكثر من خمسة قرون .

كذلك شهدنا مظاهر لحياة مجريط ... هذا البلد الذى كانت تحفه الخضرة وتمتد الجنات والحدائق تحت أقدام أسواره والذى ما زالت معالمه العمرانية تحمل كثيرا من الأسماء العربية .. شاهدا على هذه الحضارة التى حملها العرب الى اسبانيا واشتركت فى بناء صرحها خلاصة قذة مختارة من مزاج الدماء العربية والأسبانية ....

مجريط .... ذات التاريخ الثقافى العريق ، والتى أخرجت عددا كبيرا من الفقهاء والشعراء واللغويين والنحاة والرياضيين والفلكيين والكيميائيين ممن قدموا عصارة انتاجهم فى سخاء وكرم لكى تؤلف منها أوربا تركيب نهضتها . مجريط التى كانت فيها روابط للزهاد والصوفية ممن اتخذوا من هذا الثغر ميدانا لجهاد النفس وتطهيرها والانقطاع الى حياة التأمل الروحى العميق .

وبعد ، فان لنا كلمة أخيرة نتوجه بها الى الجهات القائمة بشئون العاصمة الاسبانية : ان اسبانيا عرفت خلال هذا القرن كيف تتخلص من التعصب .... وكان من فضائل علمائها وقادة الفكر فيها أنهم أصبحوا فى السنوات الأخيرة يعترفون بفضل الحضارة التى حملها العرب اليهم والتى تركت فى بلادها آثارا

لا يمكن أن يعفى عليها الزمن ، بل ان عالما من مدريد هو الذى كشف عن أصل هذه المدينة العربى وعما تدين به من الفضل لتلك الدماء الجديدة التى حملها الى بلاده موسى بن نصير وطارق بن زياد والتى ولد من امتزاجها بدماء الاسبان شعب عبقرى جمع مزايا الشرق والغرب .

اسبانيا التى أصبحت تعتز بتلك الحضارة الاسلامية وتعتبرها جزءا لا يتجزأ من تاريخها العام ومظهرا من مظاهر عالميتها الواسعة ... اسبانيا التى كان من أعظم مظاهر تحررها من التعصب وضيق الأفق أنها خلدت الذكرى الألفية لاعلان خلافة عبد الرحمن الناصر بها منذ خمس سنوات فى شاهد كتب بالعربية والإسبانية مازال ماثلا أمام مسجد قرطبة الجامع . اسبانيا التى احتفلت منذ سنتين بالذكرى المئوية التاسعة لوفاة الفيلسوف المفكر العربى بن حزم وأقامت له تمثالا فى قرطبة سجلت عليه وفاءها لذكرى هذا العلم من أعلام الثقافة العربية فى احتفال ترددت أصداؤه فى العالم كله ...

اسبانيا هذه ... ترى من الكثير أن نطلب اليها والى القائمين على أمور عاصمتها أن تخلد ذكرى ذلك الأمير الأندلسى محمد بن عبد الرحمن الذى اليه يرد الفضل فى بناء مدريد بأن تقيم له تمثالا رمزيا فى بعض ميادينها الكبرى أو شاهدا فى بعض أحياء مجريط العربية يسجل انشاء العاصمة الاسبانية على يد ذلك الأمير العبقرى ، أو تطلق اسمه وأسماء نفر من كبار علماء مجريط العرب على بعض الميادين أو الشوارع الكبيرة فى عاصمة اسبانيا الجميلة ؟ .

لسنا نظننا مطالبين اياها بما لا تطيق !

***

ملحق

ثبت بأسماء بعض الأعلام الجغرافية ذات الأصل العربى في أقاليم طليطلة ووادى الحجارة ومجريط

ـ في طليطلة Toledo :

Alamin ـ الفهمين (نسبة الى قبيلة « فهم » العربية)
Alcolea ـ القليعة (تصغير «القلعة»)
Algibe ـ الجب (أى البئر)
Almadenes ـ المدائن (جمع مدينة)
Aliman ـ الأيمن
Almadraz ـ المدرس (المكان الذى تدرس فيه الغلال)
Almonacid ـ المنستير (هذا اللفظ وان كان العرب قد استخدموه كثيرا فانه فى الحقيقة من أصل لاتينى هو monasterium أى الدير ، وهو يطلق كذلك على بلد فى تونس حتى اليوم)
Almorox ـ المروج (جمع المرج)
Aloyon ـ العيون (جمع العين)
Allozar ـ اللوز (كلمة مولدة تتألف من « اللوز » أضيفت اليها النهاية الاسبانية ar ـ التى تعنى المكان ، فمعنى اللفظ المكان الذى يكثر فيه شجر اللوز)

Añover — النوايل (جمع النائلة أى العطية)
Argés — أرجاس (جمع رجس ، يقصد به المكان الذى تلقى فيه القمامة)
Atarfa — الطرفاء (نوع من الشجر)
Azaña — السانية (بمعنى الناعورة)
Azorejo — السور (كلمة مولدة من «السور» والنهاية ejo — التى تدل فى الاسبانية على التصغير)
Azuqueica — الزقيقة (تصغير لكلمة الزقاق على غير قياس)
Borox — بروج « «جمع برج »
Darabalez — دار أبى العيش أو أبى الليث (اسم علم)
Daramazan — دار المحصن (أى المكان المنيع المحصن)
Guadalerza — وادى الأرزة (نسبة الى شجر الأرز)
Gaujarax — وادى شرس
Maqueda — مكادة (من الأصل العربى مكد بمعنى ثبت واستقر)
Mazarambroz — معصر عمروس (عمروس اسم علم ، نراه متكررا فى المراجع التاريخية الأندلسية مطلقا على أسرة مشهورة كانت تتولى بعض مدن الثغر ولا سيما فى منطقة طليطلة)
Mazaravea — منزل عبيد الله (اسم علم)
Mazarrazin — منزل رزين « «رزين» اسم علم)
Romaila — رميلة (تصغير «رملة»)

— فى وادى الحجارة GUADALAJARA :

Alaminos — الفهميين (نسبة الى قبيلة « فهم » العربية ، الذى أشرنا اليه فى طليطلة)

Alboreca ــ القرية
Alcarria ــ البريكة (تصغير «البركة»)
Alcolea ــ القليعة (تصغير «القلعة»)
Alcoron ــ القرون (بمعني القمم الشاهقة)
Alcoroches ــ الخروج (مع اضافة ــ الدالة على الجمع)
Aldovera ــ الدويرة « تصغير «الدار»)
Algar ــ الغــــار
Algarga ــ الفرقد (شجر ينسب اليه كذلك موضع فى المدينة المنورة : مدفن «بقيع الفرقد»)
Algora ــ الغــــورة
Almoguera ــ المغــــارة
Almonacid ــ المنستير (وهو اسم ســــبق أن ذكرناه فى طليطلة أيضا)
Alovera ــ الحويرة (تصغير لفظ «الحورة» أى شجرة الحور)
Alocén ــ الحصين (تصغير لفظ «الحصن»)
Alpedrete ــ البطريط (لفظ مولد من أداة التعــــريف العربية وكلمة pedrete — اللاتينية الدارجة ومعناها المكان الصخرى كثير الحجارة)
Alpedroches ــ البطروج (لفــظ مولد من أداة التعــــريف العربية وكلمة pedroches — أى شــــجر البلوط)
Alpetrea ــ البطرية (لفظ مولد من أداة التعريف العربية وكلمة petrea — أى الصخرية)
Almuña ــ المنية (بمعنى الضاحية الريفية ، وهو لفظ شائع فى الجغرافية الاسبانية وفى البــلاد

العربية أيضا ، ومنه فى مصر مثلا «منية ابن الخصيب» التى حرفت الى لفظ «المنيـا» احدى محافظات الوجه القبلى فى مصر)

Azañon — السانية (لفظ مولد من كلمة السانية العربية ومن النهاية الاسبانيية on — التى تدل على التكبير)

Azuqueca — الزقيقة (تصغير «الزقاق» على غير قياس)

Balbacil — بعل بسيل (البعل فى الاصطلاح الأندلسى هو الأرض الخلاء الجافة ويسيل اسم علم)

Benalaque — ابن الحكم (اسم علم) .

Bujalaro — برج هارون

Bujarrabal — برج الربض

Villacadima بلة قديمة (لفظ مولد من اللاتينية Villa أى مدينة و«قديمة»)

— فى مدريد MADRID :

Algete — الشـط

Alpedrete — كلمة مولدة (سبق أن فسرناها فى الكلام عن وادى الحجارة)

Alua — علوة (أى مرتفع أو ربوة)

Ambroz — عمروس (اسم علم)

Guadarrama — وادى الرمل

Serracines — الشرقيين (كلمة مولدة من «الشرقيين» والنهاية es — الدالة على الجمع)

Villamalea — بلة مليحة (لفظ مولد من اللاتينية Villa اى مدينة و «مليحة»)

كشاف عـــام

فهرس الالفاظ ذات الدلاله الخاصة

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة